الملك الناصر يوسف والمغول

للدكتور / سعد بن محمد حذيفة الغامدي
الأستاذ المشارك في قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة الملك سعود
الرياض

في ١٤٠٦/٧/٧هـ الموافق ١٧ مارس ، آذار ١٩٨٦م

تعرضت بلاد المسلمين ، شرقاً وغرباً ، للعدوان ، ومازالت حتى يومنا هذا تتعرض له ، منذ توقف المد الإسلامى فى فتوحاته ، ومنذ استمرع المسلمون حياة الدعة والراحة ، وأخذوا يتفننون فى بناء القصور الشاهقة والاستطابة فى سكناها ، والتعود على العزلة ، كضريبة للملاذ ، وكان ممن قام بذلك الهجوم ، فى العصور الإسلامية الوسيطة ، ضد العالم الإسلامى ، القوى الغربية ، يمثلها فى ذلك الصليبيون ؛ والقوى الشرقية ، ممثلة فى المغول . ولعل الذى يهمنا هنا الأخير منها ، بحكم بحثنا هذا ، فقد قامت حجافل جنكيز خان المغولية بهجوم مدمر ، وكأنه إعصار من نار ، فأتى على كل خضراء ويابسة ، وذلك فى العقد الثانى من القرن السابع الهجرى / ١٣ للميلاد ، فوصل فى زحفه ، غرباً ، حتى وصلت قواته ماء نهر دجلة ، وقد ضم منلها إلى جبال الطاى فى أواسط قارة آسيا تحت سلطان المغول ، شرقاً .

ثم جاءت فى أول النصف الثانى ، من نفس القرن ، موجة مغولية جارفة أخرى ، لا تقل عن سابقتها ، أيام جنكيز خان ، قوة وعنفاً ، فوصلت فى تقدمها إلى حدود الأراضى الشرقية لمصرنا الحبيبة . ولكن الله شاء أن يحمى هاتيك البقاع من ثقل وطأة وتدمير المغول لها بحادث قدره الله فى منغوليا ، وهو وفاة الخان المغولى « منكو » ، فتوقف المد المغولى ، وانحسر إلى الشرق من نهر الفرات ، فرحل هولاكو ، قائد حملتهم تلك ، وشد رحاله من ضواحى مدينة حلب الشهباء فى الشام ، وعاد أدراجه إلى الشرق ، يراقب أحداث الصراع الدامى ، الذى نشب بين أهل بيته على العرش ، من على كثب . وبذلك سلم الله للمسلمين مصراً (ووضعها مكان العراق ، بعد زوال خلافتها العباسية) وأعاد لهم الشام جميعاً على أيدى المصريين ، بقيادة المماليك فيها ، بعد موقعة عين جالوت الشهيرة ، فقد كانت عين جالوت بمثابة الصخرة التى عثر عليها المغول ، وتحطمت على جنباتها القوة الاسطورية للمغول ، التى ضربت حولهم ، على أنهم قوم لا يقهرون .

جاء المغول إلى المنطقة وكان الحكام والأمراء فيها ، وعلى رأسهم خليفة المسلمين فى بغداد ، فى غاية التفكك والانهيار ، نتيجة للحروب الأهلية فيما

بينهم ، فكان بعضهم يقتل بعضاً ، ويغزو منهم القسم الآخر ، فينتهك العرض ، ويسلب المال ، ويقتل الأهل والولد ، فى حروب مفيتة بينهم ، تغلى غليان قدر على نار شديدة الاستعار . لذلك كان مجىء المغول إلى المنطقة سهلاً ممهداً ، ونجاحهم ، لأخذ البلاد واستعباد العباد ، مضموناً ميسوراً ، فى ظل ظروف المسلمين وحكامهم فيها ، فقد انحلت قواهم ، وانهكت إمكاناتهم العسكرية ، ونضبت مصادرهم المادية ، ناهيك عما وصلت إليه أحوال شعوبهم ، فى كافة مجالاتها ، من تدن إلى أسفل سافلين .

كانت مواقف الحكام المسلمين ، فى هذه المنطقة ، تجاه المغول ، بوجه عام ، موالية لهم ، ومستسلمة خاضعة لسلطانهم ، مع بعض الاستثناءات القليلة جداً . كان بنو أيوب ، وأمراؤهم ، فى الشام ، جملة من ضمن أولئك الحكام . وكان لهم مواقف استسلامية ، أو تهاونية ، وعدم مبالاة ، للخطر الذى كان يطبق عليهم ، ويضيق قبضته حول أعناقهم ، يوماً بعد يوم ، حتى جاءت الساعة التى قضى فيها عليهم جميعاً ، واحداً بعد الآخر ، فقوض عروشهم ، التى أشبه بريشة فى مهب الريح .

كان الملك الناصر يوسف من أولئك الأمراء ، لا بل كان كبيرهم ، وأقواهم ، وأكثرهم سعة فى المال والجاه والملك ، ولقد التزم ، فى تعامله مع المغول ، خطاً مائلاً ، متهاوناً ، خطاً يدل على اللامبالاة ، حتى جاءه المغول ، وقبضوا عليه ، بعد أن دل عليه أحد أتباعه ، فوقع فى معيدتهم ، وهو هائم على وجهه فى البرارى ، خائفاً يترقب .

لذلك ، فإن هذا البحث المتواضع يتطرق إلى علاقة الناصر يوسف ، أكبر شخصية فى أسرة البطل ، صلاح الدين الأيوبى ، مع المغول ، منذ بدأ خطرهم يطل برأسه على الشام ، وحتى نهاية الناصر ، ومقتله على يدى المغول ، وما صاحب ذلك من ملابسات .

الملك الناصر يوسف والمغول

المغـــــول :

في أول النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر للميلاد ، ولد طفل مغولي من أسرة مدنية كانت لها المشيخة على بعض القبائل المغولية ؛ كان ذلك الطفل هو تيموجين بن يوسكاى بهادر ، والذي عرف في الأوساط التاريخية العالمية بـ جنكيز خان[١]. وعلى الرغم من الظروف العصيبة التي مر بها ذلك المولود في مرحلتي المراهقة والصبا ، إلا أنه في نهاية الأمر كتب له أن يصبح من أشهر القادة في تاريخ البشرية ، بغض النظر عن أعماله العدوانية ، وما ارتكبه مع جحافله من أعمال وحشية ، فهذه طبيعة البشر ، ومثله مثل غيره ، ممن عاصره أو جاء بعده ، والتي مازلنا نعيشها ، أو نشاهد صوراً لأعمال أكثر بشاعة ووحشية من تلك التي فعلها المغول[٢] .

بعد أن تعدى جنكيز خان مرحلتي الطفولة والصبا ، شاءت إرادة الله فيه أن يبدأ في تكوين ملك له ، ولأسرته من بعده ، فشرع في توحيد بعض القبائل المغولية القريبة منه . لذلك نجده وقد دخل في حروب طاحنة ، وتحالفات سياسية وعسكرية مع أمراء ومشايخ مختلف العشائر المغولية البدوية ، حتى استطاع في نهاية المطاف أن يصبح سيد منغوليا بدون منازع ، وأن يضع أساساً لأكبر امبراطورية عرفها تاريخ البشرية[٣].

شرع بعد ذلك يتطلع ببصره إلى خارج حدود وطنه ، الأصلي ، منغوليا ، إلى الشرق وإلى الغرب والجنوب . وما أن انتهى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، حتى أصبحت مملكته تمتد من السفوح الشرقية لجبال ألطاى غرباً إلى المحيط الهادى شرقاً ، ومن جنوب سيبريا شمالاً حتى الجنوب من صحراء كوبى من الجنوب[٤].

بعد توحيد جميع القبائل المغولية ، تقريباً ، تحت قيادته الشخصية ، شرع جنكيز خان في التخطيط لغزو الدول المجاورة ، فبدأ بدولة « التنكوت » في التبت ، فاستطاع إخضاعها لنفوذه ، بعد حروب استمرت خلال السنوات الأولى من القرن السابع الهجري / ١٣ الميلادي[٥]. ثم نجده بعد ذلك يشرع في

أواخر هذا العقد فى تنفيذ مشروعه الجرىء ، والعسكرى المشهور ، ضد أراضى امبراطورية الصين الشمالية ، وبعد حروب طاحنة ، دامت لأكثر من خمس سنوات ، استطاع أن يقضى على امبراطورية الصين الشمالية ، بعد أن اقتحم المغول عاصمتها « بكين » فى شهر صفر من عام ٦١٢هـ / يونيه (حزيران) ١٣١٥م[٦]. بعدها عاد بجنوده ، وشرع فى تجهيز قواته لشن هجومه ضد العالم الغربى من أراضى المغول ، فكانت أراضى المسلمين هى التى وقعت تحت ثقل وطأة تلك الحروب المدمرة ، حيث كانت دولة الخوارزم شاهيين هى المسيطرة على المشرق من العالم الإسلامى آنذاك . وخلال السنوات الأخيرة من العقد الثانى من القرن السابع للهجرة / ١٣ للميلاد ، استطاع المغول أن يصلوا إلى حدود إقليم العراق الشرقية ، حيث كانت الدولة العباسية ، وغيرها من الدويلات الإسلامية العديدة فى المنطقة . وبذلك قوض جنكيز خان عرش الدولة الخوارزم شاهية وعاد إلى وطنه ، وتوفى فى عام ٦٢٤هـ - ١٢٢٧م[٧].

بناء على ما تقدم شرحه ، نجد أن الامبراطورية ، المغولية عشية ، وفاة مؤسسها كانت تمتد من النهر الأصفر فى الصين والمحيط الهادى شرقاً ، إلى العراق العجمى غرباً ، ومن نهر السند وجبال الهملايا جنوباً إلى سيبريا شمالاً . وما أن شارف النصف الأول من القرن المذكور على النهاية حتى وصل المغول فى فتوحاتهم إلى قلب أوربا ، وآسيا الصغرى فى الغرب ، وتوغلوا فى أراضى الصين جنوباً ، بعد حروب مريرة وطاحنة خلال فترة حكم الإمبراطور « اكتاى » ، الذى خلف والده فى الحكم[٨]. ثم أعقب وفاة « اكتاى » فترة راكدة ، لم يقم المغول فيها بفتوحات ذات بال خلال فترة حكم ابنه وخليفته على العرش « كويوك خان »[٩]. وما أن انتهت مشكلة الصراع الداخلى فى البيت المغولى الحاكم ، حول أحقية ولاية العرش ، حتى شرع المغول ، كعادتهم ، بعد توليه خان جديد على العرش ، فى تنفيذ مشروع جديد لفتوحاتهم ، ولمد حدود امبراطوريتهم لتشمل أراضى جديدة شرقاً وغرباً[١٠]. لذلك ، فقد قامت حملتان كبيرتان ، أحدهما ضد أراضى الصين الجنوبية ،

بقيادة « قبلاى بن تولى بن جنكيز خان » والأخرى إلى الغرب ، بقيادة أخيه « هولاكو » الذى استطاع أن يصل إلى أراضى الشام بحلول عام ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م ، بعد أن قوض قوة الحشاشين الاسماعيلية فى إيران ، وقضى على خلافة العباسيين فى بغداد[١١].

لذلك جاء « هولاكو » على رأس حملة عسكرية يفتح بها المنطقة ، ويضمها إلى ممتلكات امبراطوريتهم . ولسوء حظ المسلمين كانت أوضاع حكام الدويلات الإسلامية وإماراتها فى هذا الجزء من العالم الإسلامى عامة ، وبنى أيوب خاصة ، فى غاية التفكك ، والانحلال ؛ والمهاترات السياسية والعسكرية فيما بينهم كانت على أشدها . كما كانت مواقفهم تجاه المغول الغزاة متباينة أشد التباين . فقد كان منهم الموالى والخاضع تحت نفوذهم منذ عشرات السنين ، مثل حكام : الموصل ، وفارس ، وكرمان ، والسلاجقة فى آسيا الصغرى ؛ وبين معارض ، وقف فى وجه المغول وحاربهم حتى نال الشهادة ، مثل الملك الأيوبى ، محمد الكامل ، صاحب ميافارقين[١٢]. ومنهم من كان خائفاً يترقب ، فهو مال فى الظاهر ، ومعارض فى الباطن ، أو لم تعرف له موقفاً لتأرجحه بين وبين ، مثل الملك الناصر يوسف ، صاحب الشام ، وكبير بنى أيوب ، موضوع بحثنا هذا .

بنو أيوب عشية الغزو المغولى :

عندما جاء المغول إلى منطقة الهلال الخصيب فى أوائل النصف الثانى من القرن السابع الهجرى / ١٣ للميلاد ، كان أمراؤها وحكامها ، بوجه عام ، وبنو أيوب خاصة ، فى منتهى الانحلال وتشتت الشمل . والذى يهمنا هنا الأمراء الأيوبيون فى الشام والجزيرة عامة ، والأمير الأيوبى الملك الناصر يوسف خاصة ؛ فقد أضحى فى آخر الأمر كبير أمراء هذه الأسرة ، وأكثرهم جمعا ، وأوسعهم أرضاً . ومما يدل على عدم وحدة البيت الأيوبى وجود العديد من الإمارات الصغيرة المنتشرة فى أنحاء متفرقة من بلاد العراق والشام ، ويحكم كل إمارة منها أمير ، لا يكاد يدين بالولاء لأى حاكم أو أمير آخر أكبر منه ، إلا إذا

غزاه من هو أكثر قوة وجمعاً منه ، فإما أن تضم إمارته إلى أراضي ذلك الغازي الجديد ، وإما أن يخضع تحت سلطانه ، بعد أن ينعم عليه سيده الجديد بإبقاء ممتلكاته وأراضيه له ، وفوق ذلك كله جعله حراً طليقاً ، لأن الأغلبية منهم كان يعتقل ، ويودع السجن فيظل فيه ما بقي حياً ، إلا لظروف جديدة تطرأ تؤدي إلى خلاصه ، كما سيرد معنا في ثنايا هذا البحث[١٣].

لذلك نجد أن الحروب الأهلية بين أمراء بني أيوب لا تكاد تنقطع حتى وتبدأ من جديد ، وعلى أشد ما يكون ، وبشكل أو بآخر ، بين هذا الأمير أو ذاك . فكل واحد منهم كان يتحين الفرص للسيطرة على غيره من الأمراء الآخرين ، وإخضاع إماراتهم لنفوذه . لهذا كانت الأوضاع الداخلية غير آمنة ، ولو لفترة قصيرة ، لأي أمير من هؤلاء . فكان كل واحد يعيش عيشة الخوف من الغزو والذل . ولهذا لم تدم الإمارة لهذا أو ذاك لوقت طويل ، باستثناء الناصر يوسف ، موضوع بحثنا هذا[١٤].

الناصر يوسف صاحب حلب :

عندما توفي الملك محمد بن غازي بن صلاح الدين الأيوبي (٦١٣ - ٦٣٤هـ / ١٢١٦ - ١٢٣٧م) جاء من بعده ، على ملك حلب وتوابعها ابنه الملك الناصر يوسف ، وهو ابن ست سنين ، تقريباً[١٥]. فتولت جدته لأبيه ، بعاونها في ذلك كبار أمراء ومماليك أبيه ، شؤون الدولة نيابة عن حفيدها[١٦]. ظل الوضع على ما هو عليه حتى وفاة تلك المرأة في عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م ، بعد ذلك نجد الناصر يوسف يتسلم مهام شؤون إمارته ، يساعده في ذلك الأمراء وكبار رجاله[١٧].

أخذت قوة الناصر تزداد ، وأطماعه تتسع تباعاً ، لذلك فقد استطاع أن يوسع ممتلكاته على حساب جيرانه الأيوبيين الآخرين ، فأخضع دمشق في عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م ، وأخذ معها توابعها ، مثل بعلبك ، وعجلون ، وشميس ، ثم أخذ الصبيبة وبانياس ؛ وكان قبلها قد ضم حمص من أمرها الأشرف موسى ، وأخضع صاحب حماه لسلطانه ، ثم ضمت له جميع أراضي

الشام بشكل أو بآخر ، وكان له فى الشرق من الفرات حران ، والرها ، والرقة ، ورأس العين وتوابعها ، فأضحى بذلك كبير بنى أيوب ، وأقواهم عشية الغزو المغولى[١٨].

لعل الناصر يوسف كان يسعى ، فى سياسته هذه ، إلى توحيد أراضى الشام ، ومحاولة بسط نفوذه على مصر ، ومن ثم يبدأ بعدها منازلة الصليبيين ، وإزالة وجودهم من أرض الإسلام . وفوق ذلك كله ، مواجهة المد المغولى الجارف ، الجارف ، الذى كان يطل برأسه كالتنين ، ليبتلع الأراضى المتبقية للمسلمين فى العراق والشام ومصر . إن سياسة مثل هذه عمل جيد ، مثله فى ذلك مثل جده الأكبر صلاح الدين . ولكن أعمال الناصر وتصرفاته والسياسة الخارجية واتجاهاته الدينية التى كان يسير عليها لا تدل على شىء من ذلك . فقد مد يد الصداقة للمغول ، وهذا ما سنراه فى ثنايا هذا البحث ، وصداقته وهدنته مع الصليبيين فى المنطقة ، بدليل أنه لم يقم بأى عمل عسكرى ضدهم . فكل همه كان موجهاً ضد الأمراء من أسرته ، وبشكل شرس ، كما سيرد معنا بعض الأمثلة لذلك . وفوق ذلك كله عدم انتهاج سياسة واضحة لتحقيق هدف سام ، يخدم الإسلام والمسلمين .

على الرغم من أن الناصر أصبح هو الحاكم الأول فى بلاد الشام ، إلا أن سياسته لإعادة نفوذ الأسرة الأيوبية على سابق عهدها لم تفلح ، وذلك لأسباب كثيرة لعل من أهمها قوة حكومة المماليك الجديدة فيها من جهة ، ولعدم وحدة البيت الأيوبى خلف زعيمها من ناحية ثانية ، فرغم تكتل معظم الأمراء الأيوبيين ، وتوحيد صفوفهم ، ربما لأول مرة منذ وفاة الملك محمد الكامل بن العادل ، وسيرهم ضد حكومة المماليك فى مصر ، فقد منى بهزيمة على أيدى المماليك فى ذى القعدة ٦٤٨هـ / فبراير ، شباط عام ١٢٥١م . حيث انقلب نصرهم إلى هزيمة نتيجة ، على ما يبدو لى ، لعدم الانضباطية العسكرية ، والخبرة التنظيمية لإدارة المعركة ، فقتل بعضهم ، وأسر فريق منهم ، ولاذ بالهرب ، ناج بجلده ، طائفة أخرى[١٩].

بعد هذه المعركة استقل المماليك بمصر ، بينما انصرف الناصر يوسف إلى ذلك الأمر المعهود فى أسرته ، وهو العودة إلى المهاترات السياسية ، والحروب المنهكة ، فيما بينهم ، فاستمرت تلك الأوضاع المزرية بينهم ، ليس فقط بعد سقوط بغداد ونهاية خلافة العباسيين بها ، بل وحتى الوقت الذى شرع هولاكو يعد العدة للانقضاض على الشام ، والسير منها إلى مصر .

ويحسن فى هذا المقام أو أورد مثالاً أو مثالين على ما كان يقع بين الأيوبيين عشية مجىء المغول ، وتصفية الجميع على أيديهم . ففى سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، وعندما كان المغول وأعوانهم يقصون مكان بغداد خاصة وأراضى العراق عامة ، ويهلكون فيها الحرث والنسل ، نجد الأمراء الأيوبيين ، بقيادة كبيرهم هذا ، يدخلون فى معركة ثانية مع المماليك قرب غزة . فهزم الأيوبيون أيضاً . وفى السنة التالية ، وفى الوقت الذى كان المغول يدقون أبواب الشام بمعول الدمار وللاطاحة بهم ، دخل الناصر فى حرب ضد أراضى أمير أيوبى آخر ، هو المغيث فتح الدين عمر ، صاحب الكرك والشوبك ، فاستمر يحارب خصمه حتى ألجأه داخل قلعته ، فحاصره فيها حصاراً أشد ما يكون ، ولم يقلع عن ذلك إلا بعد أن تضرع إليه الناس وحتى النساء من أسرته هو[٢٠].

هذه نبذة مختصرة عن أوضاع بنى أيوب المتردية ، بل المخزية ، والتى كانت سبباً لزوال ملكهم على أيدى قوة تغزوهم ، فما بالك وقد كانت قوة المغول تسير فى طريقها إليهم ، بعد أن أزاحت من الوجود امبراطوريات ، ودول كبرى . ومقابل ذلك ما كانت عليه امبراطورية المغول من القوة واتساع السلطان .

الاتصالات السياسية بين الناصر يوسف والمغول :

يرجع تاريخ العلاقات السياسية بين المغول وخانهم فى « قراقروم » من ناحية وبين أمراء الأسرة الأيوبية ، ممثلة فى الناصر ، من ناحية ثانية ، إلى الوراء الأكثر من عشر سنوات . وهنا تورد الروايات التاريخية ذات الصلة المباشرة ، والمعاصرة للأحداث فى هذا الشأن ، أن رسلاً كانت قد جاءت من حكام

الأقاليم الغربية إلى « قراقروم » ، لتقدم التهانى إلى الخان المغولى « كويوك ابن اكتاى » (٦٤٤ - ٦٤٦هـ / ١٢٤٦ - ١٢٤٨ م) والذى توج حديثاً خلفاً لوالده « اكتاى » (٦٣٧ - ٦٣٩هـ / ١٢٢٩ - ١٢٤١م) . وقد كان من بين تلك الوفود وفد من صاحب حلب برئاسة أخيه ، وأن كل واحد جاء ومعه من التحف والهدايا ما يناسب بلاط الخان المغولى ، وقد أقيم لأعضاء تلك الوفود ما يقارب ألف خيمة من اللبود ، لانزالهم فيها طوال فترة إقامتهم[٢١].

بعد أن انتهت تلك الوفود من مهامها السياسية . وشاركت فى حفل التتويج ، وقبل مغادرة كل وفد ، نجد أن الخان يصدر أوامره بإعطاء أعضاء الوفود المشاركين فى ذلك الاحتفال ، مراسيم ولوحات براءة « برليغها وبيزاها » ، وكذلك فقد منحت للحكام الذين جاءت تلك الوفود ممثلة لهم[٢٢]. إذا ، كان صاحب حلب ممن حظى بمرسوم خانى « برليغ أو يارليغ » وكذلك بلوحة براءة « بيزا أو بايزا » من الخان المغولى ، فأرسلت تلك مع ممثلة . لذلك أصبح الناصر ، على الأقل من جهة النظر المغولية ، من أحد أتباع ورعايا الخان المغولى ، فهو تحت حمايته ، فلا أحد يستطيع التعدى أو التطاول عليه ، أو الحاق الضرر به ، فهو تابع ، وأملاكه أملاك ، للمغول ، ومواطنوه تحت الحماية المغولية . هكذا كان المغول ينظرون إلى أشياء من هذا القبيل ، كما سيرد معنا .

ومما يدل على أن صاحب حلب كان تابعاً للمغول رواية أوردها الجوينى ، فى معرض كلامه عن الأقاليم الغربية ، التى كانت تخضع إدارياً تحت نفوذ حاكم المغول الإدارى فى الغرب ، من أن الخان المغولى جعل كل تلك الولايات فى الغرب تحت إدارة حاكمة هناك « ارغون آقا » بما فيها ولاية صاحب حلب ، وما يدخل تحت نفوذ ملكها من أراضى وأتباع ، من الأمراء الأيوبيين الخاضعين للملك الناصر[٢٣]. إذا ، كان المغول يعتبرون الملك الناصر يوسف من أتباعهم ، والخاضعين لسلطانهم ، وكذلك بقية الأمراء الأيوبيين فى الجزيرة والشام . أما ما يتعلق بوجهة نظر بنى أيوب ، من الناحية الثانية ، فلا أستطيع الجزم فى القول بأنهم كانوا يدينون للمغول بالولاء ، أو أنهم كانوا يعتبرون

أنفسهم تحت حكم المغول ، أو حمايتهم ، بأى شكل كان ، مباشر أو غيره . ومع ذلك ، فإننا نجد أنفسنا أمام مواقف معينة وواضحة كان يتخذها أمراء بنى أيوب ، فى تعاملهم مع المغول . فمن هذه المواقف مسألة وجود وفد يمثل الناصر لدى البلاط المغولى ، للتهنئة بالسلطة ، والاشتراك فى حفل تتويج الخان الجديد ، وإرسال الهدايا والتحف ، الأمر الذى نتج عنه ، منح براءات الأمان ، وهوية التبعية المغولية ، كما ورد فى الحاشية قبل السابقة .

إن الذى يظهر لنا هنا بأن الناصر قد أوفد من لدنه رسولاً إلى منغوليا ، وذلك قبل وفاة « كويوك » سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م ، وربما كان ذلك الرسول هو الصاحب زين الدين الحافظي ، كما سيتضح ذلك من النص الذى أورده ابن العميد كما سيرد معنا بعد قليل[٢٤] . وما نستدل به على ذلك أيضاً رواية جاء بها رشيد الدين ، من أن ذلك الرسول جاء ومعه الهدايا والتحف ليقدمها إلى القا آن المغولى ، وقد حظى الرسول بالاعزاز والتكريم ، إضافة إلى ذلك فقد منح مرسوماً وبراءة . « كان سلطان حلب قد أرسل وزيره زين الدين الحافظي إلى حضرة القا آن بتحف وهدايا ملكية ، وبذلك أصبح مشهراً ومعروفاً فى البلاط ، فصدر له المرسوم والبراءة »[٢٥] . ويؤيد روايتى كل من الجوينى ورشيد الدين ما جاء فى مصنف ابن العميد فى هذا الخصوص بأن « الأمير شمس الدين لولو كان فى حياته قد أرسل إلى القا آن الكبير ملك التتار بهدايا كثيرة وتحف جليلة وأحضر من عند القا آن إلى الملك الناصر ضمغا ونشانا يحملها فى حياصته وهذا دليل الطاعة عندهم .. »[٢٦] . ويضيف مؤرخنا هذا أن الحافظي رجع من مهمته تلك ، ووصل إلى الشام فى عام ٦٤٩هـ/١٢٥٣م ، أى بعد مقتل شمس الدين لولو . وهنا يمكننا أن نستنتج أن الحافظي كان قد أرسل إلى « القا آن » قبل سنة ٦٤٩هـ/١٢٥٣م ، بأكثر من ستة أشهر ، أو ربما سنة . فقد أرسله قبل المسير من الشام على رأس جيش الناصر ضد المماليك فى مصر ، والتى قادها لولو نفسه . فكانت المعركة فى ذى القعدة من عام ٦٤٨هـ/فبراير (شباط) ١٢٥١م . هذه ناحية ، والناحية الثانية أن الحافظي قد أرسل إما قبل وفاة « كويوك » ، أو بعد وفاته ، أو أن

أخبار وفاته لم تصل إلى الشام بعد . فأرسل لتجديد العهد والولاء للمغول ؛ أو أن الحافظي قد أرسل إلى المرأة الوصية على العرش المغولي وهي أرملة الخان المتوفى « أغول غايميش » التي أنيطت بها مهام إدارة الامبراطورية المغولية ، حتى تستكمل إجراءات الدعوة العامة لحضور الاجتماع الكبير الذي يحضره كافة الأمراء من سلالة جنكيز خان ، وكبار القادة والإداريين من كافة أنحاء الامبراطورية . وذلك للبت في اختيار شخص يخلف الخان المتوفى ، ويتم تتويج آخر على العرش[٢٧].

إذا ، كانت الهدايا التي أرسلت مع الحافظي ، مرسلة في الأصل إما إلى « كويوك » ، وإما إلى أرملته ، فصادف وصوله حفل انتخاب ثم تتويج الامبراطور المغولي « منكو » ، فقدم تلك الهدايا له ، وكأنها مرسلة في الأصل إليه . وما يدل على التبعية التي كان الناصر يدين بها للمغول ، نص أورده في هذا الخصوص أيضاً ابن العميد ، حيث قال فيه بأن الناصر كان يسير كل سنة بالهدايا والتحف إلى نائب « القا آن » في الجنوب الغربي من امبراطورية المغول « بلاد العجم » بايجونويان[٢٨].

بعد أن وصل « هولاكو » كش ، فيما وراء النهر ، وهو في طريقه لتنفيذ حملة المغول الغربية ، أرسل وفوداً من عنده إلى الحكام التابعين للمغول في الأقطار الغربية للمساهمة ، في حملته تلك ، ضد قلاع الاسماعيلية في إيران ، فلابد إذاً أن يكون الناصر ممن تلقى شيئاً من ذلك الأمر[٢٩].

على الرغم من أن الناصر ، على ما يبدو لنا ، قد تسلم رسالة من « هولاكو » كأي واحد من الحكام الآخرين في المنطقة ، إلا أنه لم يجب عليها في الحال ، كغيره ممن استجاب له ، أو أنه قد أجاب ، ولم نعثر على ذلك . إلا أن الاحتمال الأول هو الأقوى ، لأمرين هامين ، أولهما : أن الناصر أصبح ، في السنوات الأولى من النصف الثاني للقرن السابع الهجري/١٣ للميلاد ، مشغولاً ومهتماً جداً في توسيع أراضيه ، والحفاظ على ما تحت يده ، وفي نزاع مستمر مع جيرانه من أسرته ومع المماليك في مصر ، كما مر معنا ذلك ؛ وثانيهما : رواية جاء بها ابن العميد في هذا الخصوص ، حيث يقول بأن الناصر

قد تغافل عن « هولاكو » « ... ولم يسير إليه شيئاً بالجملة لأمر إرادة الله تعالى فشق ذلك على هولاؤون (هولاكو) وكان يقول فى كل وقت الملك الناصر ، كان يسير لبابجوا التحف والهدايا وهو غلامنا ونحن منذ وصلنا ما سير لنا رسولاً ولا هدية وبقى هذا فى نفسه »[٣٠]. فإذا أخذنا بالرأى الأخير ، فلعل هناك عدة أسباب منعت الناصر من الرد على رسالة هولاكو منها :

١ - لأن عدداً كبيراً من الأكراد والتركمان ، الشهرزورية ، ويقدر عددهم بحوالى ثلاثة آلاف فارس ، جاءوا ، ومعهم نساؤهم وأموالهم ، هاربين من مقصلة المغول ، ولجأوا سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م إلى بلاد الشام ، فالتحقوا بخدمة الناصر واستخدمهم فى جيشه ليكثر بهم جمعه ضد منافسيه ، صاحب الكرك والمماليك ؛ لهذا فقد أصبحوا قوة لا يستهان بها ، فخافهم الناصر ، فلم يستطع أن يرسل رسولاً أو هدايا إلى هولاكو ، كعادته التى كان يتبعها مع بابجونويان .

٢ - انشغال الناصر ، وكما قلنا ذلك قبل قليل ، بالحروب ، والاستعداد لأخرى ، عهلى محورين ، الأول ضد دولة المماليك فى مصر ، فتارة يستعد لأخذها ، لاستعادة سيطرة الأيوبيين عليها ، وكرة يتأهب للدفاع عن أراضيه ضدهم ؛ والمحور الثانى ضد الملك المغيث ، صاحب الكرك والشوبك ، الذى أصبح يمثل خطراً كبيراً ، ويهدده من وقت لآخر ، وخاصة بعد أن انضمت قوة كبيرة معه ، من المماليك ، ثم لحق بهم أيضاً من كان قد التحق بالناصر ، الأكراد والتركمان[٣١].

٣ - كون الناصر قد حصل على الحصانة المغولية « الياليغ واليزا » ، والتى منحه إياهما « القا آن منكو » نفسه ، فهذه كفيلة بحمايته من أى ظلم قد يتعرض له على أيدى المغول أو « هولاكو » ، الذى يلتزم بقوانين المغول فى هذا الشأن أشد التزام .

يذكر ابن العميد أنه بعد أن جاءت الأخبار إلى الناصر ، بسقوط بغداد فى أيدى المغول وأعوانهم ، خاف خوفاً عظيماً ، وخشى مغبة تغافله وإهماله رسالة هولاكو ، فأرسل فى الحال وفداً من عنده ، برئاسة ابنه الملك العزيز محمد ،

يرافقه زين الدين الحافظي وآخرون ، ومعهم هدايا جمة وتحف ونفائس جليلة ، وهم يحملون رسالة اعتذار له عن عدم تمكنه من المجيء . فقال « هولاكو » : « ولم لا جاء الملك الناصر إلينا ؟ » فاعتذروا بأنه قبالة العدو وبلاده في وسط بلاد الفرنج فما يمكنه أن يتركها ويحضر وقد سير ولده ينوب عنه في الخدمة فأظهر قبول العذر وباطنه بخلاف ذلك »[٣٤]. أما ابن العبري ورشيد الدين فيذكران بأن هذا الوفد أرسله الناصر إلى هولاكو بعد أن جاءته رسالة من هذا القائد المغولي . وقد أورد كلا المؤرخين مضمون الرسالة ، ولكنها طويلة عند ابن العبري ، وقصيرة ، مختصرة عن رشيد الدين . وقد آثرت أن أوردها كما جاءت لدى الأول ، فهو معاصر ، وممن شاهد الأحداث بعينيه ، وشارك مع المغول ، وخدم تحت رئاسة كاتب الرسالة نفسه ، نصير الدين الطوسي . يقول ابن العبري : « ... أرسل هولاكو ايلجيه (رسولاً) إلى الناصر صاحب حلب برسالة يقول فيها : « يعلم الملك الناصر أننا نزلنا بغداد في سنة ست وخمسين وستمائة وفتحناها بسيف الله تعالى وأحضرنا مالكها وسألناه مسئلتين فلم يجب لسؤالنا فلذلك استوجب منا العذاب كما قال في قرآنكم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وصان المال . فآل الدهر به إلى ما آل . واستبدل النفوس النفيسة . بنقوش معدنية خسيسة . وكان ذلك ظاهر قوله تعالى : ﴿ فوجدوا ما عملوا حاضرا . لأننا قد بلغنا بقوة الله الإرادة ﴾ . ونحن بمعونة الله تعالى في الزيادة . ولا شك أن نحن جند الله في ضمه خلقنا وسلطنا على من حل عليه غضبه . فليكن لكم في ما مضى معتبر . وبما ذكرناه وقلناه مزدجر . فالحصون بين أيدينا لا تمنع . والعساكر للقائنا لا تضر ولا تنفع . ودعاؤكم علينا لا يستجاب ولا يسمع . فاتعظوا بغيركم . وسلموا إلينا أموركم . قبل أن ينكشف الغطاء ويحل عليكم الخطأ . فنحن لا نرحم من شكا . ولا نرق لمن بكا . قد أخربنا البلاد . وأفنينا العباد . وأيتمنا الأولاد . وتركنا في الأرض الفساد . فعليكم بالهرب . وعلينا بالطلب . فما لكم من سيوفنا خلاص ولا من سهامنا مناص . فخيولنا سوابق . وسهامنا خوارق . وسيوفنا صواعق . وعقولنا كالجبال . وعددنا كالرمال . فمن طلب منا الأمان سلم . ومن طلب الحرب ندم . فإن أنتم أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا

لكم مالنا وعليكم ما علينا . وإن أنتم خالفتم أمرنا وفى غيكم تماديتم فلا تلوموننا ولوموا أنفسكم . فالله عليكم يا ظالمين فهيئوا للبلايا جلباباً . وللرزايا أترابا . فقد أعذر من أنذر . وأنصف من حذر . لأنكم أكلتم الحرام وخنتم بالإيمان . وأظهرتم البدع واستحسنتم الفسق بالصبيان . فابشروا بالذل والهوان . فاليوم تجدون ما كنتم تعملون . سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . فقد ثبت عندكم أننا كفرة . وثبت عندنا أنكم فجرة . وسلطنا عليكم من بيده الأمور مقدرة . والأحكام مدبرة . فعزيزكم عندنا ذليل . وغنيكم لدينا فقير . ونحن مالكون الأرض شرقاً وغرباً . وأصحاب الأموال سلباً ونهباً . وأخذنا كل سفينة غصباً . فميزوا بعقولكم طرق الصواب قبل أن نضرم الكفرة نارها . وترمى بشرارها . فلا تبقى منكم باقية . وتبقى الأرض منكم خالية . فقد أيقظناكم . حين راسلناكم . فسارعوا إلينا برد الجواب بتة . قبل أن يأتيكم العذاب بغتة . وأنتم لا تعلمون »[٣٣].

ولهذا السبب نجد الملك الناصر يرسل ولده وبقية الوفد ليتوبوا عنه عند « هولاكو » ، وذلك بعد أن رحل عن بغداد ، فأصبح الأمير الأيوبى الصغير ومرافقوه ، على ما يبدو لنا ، من جملة وفود الحكام المسلمين الذين قدموا على « هولاكو » ، ليعلنوا ولاءهم وطاعتهم له ، وربما ليهنئونه بفتح بغداد وانتصاره على خليفتها[٣٤]. وقد ظل هذا الوفد لدى « هولاكو » ، حسب رواية ابن العبرى ، من أوائل الشتاء إلى الربيع ، ربما كان ذلك عام ٦٥٦ - ٦٥٧هـ/١٢٥٨ - ١٢٥٩م ، ولم يعد أفراده إلى الناصر ، الذى لم يمنعه من الذهاب شخصياً سوى خوفه من كبار أمرائه ، إلا فى ربيع ذلك العام[٣٥]. ولذلك أرسل الناصر ابنه ، حسب رواية الحنبلى ، العزيز محمداً إلى هولاكو فى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م بتحف وهدايا ليصانعه بذلك[٣٦].

كان رشيد الدين ممن تطرق لموقف الناصر من المغول بشكل عام حيث يقول : « ... وعندما وصل هولاكو إلى الأراضى الإيرانية كان سلطان حلب يظهر له فى بعض الأحيان الولاء والطاعة فى الخفاء ، لذلك السبب أضحى متهماً لدى سلاطين الشام ، الذين ساروا ضده ، فخافهم ولاذ بالفرار إلى

حضرة هولاكو خان ، لذلك فقد عقد (يعنى هولاكو) العزم على فتح حلب»[٣٧].

على الرغم من انطباق هذه الرواية على موقف الناصر العام من المغول ، إلا أن رشيد الدين قد وقع ، على ما يظهر لى فى لبس وخلط ، وتحتاج روايته إلى إيضاح . لأن الناصر لم يذهب بنفسه ، وعن طواعية واختيار ، إلى هولاكو ، كما يبدو من هذه الرواية . فمن المعروف أنه أخذ أسيراً ، إلى « هولاكو » كما سنرى فيما بعد من هذا البحث . أما مسألة أن ذهاب الناصر إلى « هولاكو » قد قوى من عزمه على قصد حلب وفتحها ، فإن ذلك الأمر لم يكن يحتاج إلى شىء من ذلك ، لأن أوامر « القا آن » واضحة ، حيث تقضى على « هولاكو » بألا يتوقف فى مسيرته إلا عند حدود مصر الغربية . ومعروف أين هى حدود مصر هذه . « فهولاكو » والمغول لم يكن الأمر يحتاج منهم إلى تحريض محرض ، أو تلبية دعوة داع . وقد ناقض مؤرخنا نفسه فى رواية ، أوردها فى مصنفه هذا ، حول الناصر . وسنتكلم عن ذلك فى حينه ، من هذا البحث[٣٨]. أما أن الناصر أصبح متهماً عند بنى أيوب بأنه موالياً للمغول ، فهذه إشارة من رشيد الدين إلى شىء معروف ؛ فالناصر ، وكما سبق ذكره ، موال للمغول حتى قبل أن يصل « هولاكو » إلى المنطقة . والسؤال هنا : ما الذى منع الناصر من الذهاب بنفسه إلى الأمير المغولى عندما طلب منه ذلك ؟ يبدو لنا أن الذى منعه أمور كثيرة منها : خوفه من أسرته ، وأنه كبير بنى أيوب ، وما سيلحقه من اللوم ، وأن مكانته ، سياسياً وعسكرياً ستعرض إلى الخطر ، وربما إلى الدمار ، من الداخل ومن الخارج . ففى الداخل ، نجد أن مكانته لم تكن فى وضع جيد ، إذ أن علاقته بكبار الأمراء من غلمانه وغلمان أبيه ، بدأت تضعف ، وخاصة بعد أن أخذ كبار مماليك أبيه يظهرون عدم الولاء التام ، بسبب ما يعانونه من قلة ذات اليد ، ومن المطعم والملبس . لذلك نجده يضطر إلى سماع شكواهم ويزيد فى عدتهم حتى طابت نفوسهم . ومع ذلك لم يكن مطمئناً إلى ولائهم ، فأخذ عليهم العهود المواثيق ، حتى زال شىء مما فى نفسه من القلق . كذلك نجد أن قوة الأتراك والأكراد الشهرزورية ،

الذين رحب بهم ، وأنعم عليهم بالخلع والأعطيات ، يخونونه ، ويذهبون إلى صاحب الكرك والشوبك ، خصم الناصر . ومن ناحية ثالثة كان وضع الناصر من الخارج لا يسمح له بالخروج عن مملكته ، حتى لا تخرج عنه ، إلى إحدى القوى المحيطة به من الخارج فالصليبيون ، جيرانه ، رغم أنه لم يثبت أن أياً من الطرفين قد تعدى على الآخر ، ومع ذلك كان يخشاهم الناصر . وهناك قوة المماليك ، التي أخذت تتطلع ببصرها إلى الشرق ، للتوسع على حساب أملاك الأيوبيين ، أسيادهم فيما مضى ، وهناك المنافس الأول على رئاسة وزعامة بني أيوب ، الملك المغيث ، الذي كان يهدده من وقت إلى آخر ، وخاصة بعد أن تقوى بذهاب المماليك إليه ، وكذلك اغراط الأكراد والتركمان تحت لوائه ، بعد أن ترك الجميع الخدمة في جيش الناصر ، لذلك نجده يضطر إلى التجهيز والخروج للقائهم ، دفاعاً عن ممتلكاته وذلك في أوائل عام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م ، عندما خرج المغيث ليغزو دمشق ، وليأخذها من الناصر ، فكتب له النصر ، فضعف المغيث بعد الهزيمة وانفضت من حوله تلك القوى التي البته واستعز بها[٣٩] . أما المماليك في مصر ، فإنه عندما انضم إليه الأمراء الهاربون من المعز ايبك التركماني ، وعلى رأسهم الظاهر بيبرس ، فأرسل إلى المعز يطلب منهم إعادة أراضي كانت قد أخذت منه على طريق الساحل ، فخاف المعز وأعادها إليه . وهنا خشي الناصر أنه لو ذهب إلى « هولاكو » لربما استغل الأعداء المماليك فرصة خروجه ، وهاجموا ممتلكاته ، وربما فقدها جميعاً[٤٠] . إضافة إلى ماذكرناه ، فإن موقف الناصر من محمد الكامل ، صاحب ميافارقين ، كان لا يسمح له بالذهاب شخصياً ، إذ أنه ، وفي هذا الوقت بالذات ، سيعرض نفسه للوم وتقريع الناس . فقد كان محمد الكامل يحالد المغول المحاصرين له منذ أكثر من سنة ، وكان قبل ذلك قد جاء شخصياً إلى الناصر ، وطلب منه الاتحاد ضد المغول ، إلا أنه رفض ذلك ، بل وسفهه ، ولم يكترث به . فعاد محمد هذا إلى ميافارقين ، ولم يستسلم للمغول ، وقاتلهم عامين كاملين تقريباً ، حتى استشهد ، يرحمه الله[٤١] .

مما سبق يتضح لنا أن الناصر يوسف كان موالياً للمغول ، ويدين لهم بالطاعة . لذلك رأى أن يتريث فى مقر ملكه ، حتى يقترب « هولاكو » منها ، فيخرج إليه ، فيكون بذلك قد حظى برضى الأمير المغولى ، بما سبق وفعله ، عندما أرسل ابنه وأمراءه ، ومعهم الهدايا وخطاب الاعتذار ، كما سبق ذكره ، وضمن بقاءه على كرسى مملكته ، حتى ولو كان تحت ظل المغول وحكمهم المباشر ، لأن ذلك ، فى نظره أفضل من الخروج إلى « هولاكو » وهو ما يزال فى العراق ، وأذربيجان ، فيأتى أعداؤه لمهاجمة ممتلكاته ، فيستولون عليها ، ويخربون أراضى آبائه وأجداده من تحت يديه . لهذه الأسباب جميعها رأى الناصر ، كما يبدو لنا ، أن يوفد ابنه ، حتى لا يظهر أنه قد تجاهل رسالة « هولاكو » ، فيغضبه من ناحية ، ولم يذهب إليه هو بنفسه ، خوف أسرته ، ومذمة المسلمين ، وخشية تعرض أراضيه للغزو الخارجى من ناحية ثانية .

ومع هذا وذاك فإنه لم يخف على الأمير المغولى موقف الناصر الغامض . فالمغول لا يؤمنون إلا بواحدة من اثنتين أما الخضوع المطلق للمغول ، والاستجابة لداعيهم وتنفيذ أوامرهم ، وإما المساوفة ، وهذا عندهم يعنى العداء الصريح ، فهم قوم لا يؤمنون بأنصاف الحلول . لهذا ، نجد « هولاكو » يعيد ابن الناصر ، ومن معه ، ويحملهم رسالة لإبلاغها إليه . وهذا ما يظهر من أسلوب رسالته إلى الأمير الأيوبى . وهنا يذكر رشيد الدين بأن « هولاكو » سمح لرسل الناصر بالعودة إلى الشام ، وذلك فى ١٩ ربيع الأول ، وحملهم رسالة إليه[٤٢]. وقد أشارت المصادر ، ذات الصلة المباشرة ، إلى عودة وفد الناصر وهم يحملون رسالة غير التى ذكرها مؤرخنا هذا ، والذى أورد رواية غير دقيقة فى هذا الشأن ، كما يبدو لنا . فهذه الرسالة التى جاء بها رشيد الدين ، قد حملت إلى الناصر قبل أن يكون هناك مراسلة بين الطرفين ، بعد وصول هولاكو إلى العراق . وكذلك فإن من نتائج هذه الرسالة كانت استجابة الناصر ، حيث أرسل ولده والوفد المرافق له إلى الأمير المغولى . ويظهر لنا أن هذه ربما كانت إشارة من رشيد الدين إلى عودة الوفد ، ومعهم

رسالة أخرى غير تلك التى جاءت فى العام المنصرم ، إلى الناصر ، كنتيجة لها ، لأن المصادر الأخرى ذات العلاقة تذكر شيئاً من هذا ، كما سنرى هنا .

ففى هذا الشأن ، تحدثنا بعض الروايات تلك ، أن رسل الملك الناصر عادوا إليه فى شعبان من عام ٦٥٧هـ/آب ، أغسطس ، سنة ١٢٥٩م ، وأنهم ذكروا للناصر أن « هولاكو » قد قبل الهدية ، وطابت بها نفسه ، وزال ما كان عنده[١٣]. أما ابن العبرى ، فإنه يذكر فى هذا الخصوص أن الملك العزيز قال لأبيه ، بعد عودته : « قد قال ملك الأرض (يعنى هولاكو) : نحن للملك الناصر طلبنا لا لولده فالآن إن كان قلبه صحيحاً معنا يجىء إلينا وإلا فنحن نمشى إليه »[١٤]. أما صاحب مصنّف « الحوادث الجامعة .. » فيقول بأن « هولاكو » قال لابن الناصر : « .. ، نحن طلبنا أباك وحيث لم يحضر نسير إليه »[١٥].

مما سبق ذكره ، يتضح لنا جلاء أكثر أن الملك الناصر يوسف كان فى الغالب موالياً للمغول ، ويدين لهم بالطاعة . فرأى ، على ما يظهر لنا ، أن يتريث فى مقر ملكه ، حتى تتضح الرؤيا ، ويقترب « هولاكو » من أراضى الشام ، فيخرج إليه ، فيكون بذلك قد حاز رضاه ، بما سبق وفعله ، عندما أرسل ولده وأمراءه ، وهم يحملون الهدايا كما سبق ذكر ذلك ، وضمن ممتلكاته من أى هجوم قد يقوم به أحد أعدائه ، الصليبيون ، والمماليك ، أو المغيث ، وبذلك يفوز على البقاء فى كرسى مملكته ، تحت سلطة المغول . ولكن حدث فى النهاية أمر من الناصر ، على غير ما ظهر منه ، طوال السنوات العشر الماضية . فقد تغير موقفه من موال للمغول ، كما رأينا ، إلى محاربه ومقاتل ضدهم . فما هو السبب وراء ذلك التغير المفاجىء ، والغير متوقع ، وقد رفض قبل ذلك أن يتعاون مع محمد الكامل ، صاحب ميافارقين ، ضد التعدو الغازى ؟

هولاكو يستعد لغزو الشام ومصر ، وبدأهما بمهاجمة ممتلكات الناصر :

بعد أن قوض المغول خلافة بنى العباس ، وقُتِل آخر خلفائهم ، انتهى « هولاكو » بذلك من انجاز المرحلة الثانية من المهام التى أوكلت إليه من المغول المجتمعين فى « قراقورم » فى سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م . لذلك كان لابد لجنود المغول وخيولهم من فترة طويلة للراحة ، كما هى عادتهم ، بعد كل غزوة كبيرة ، يقومون بها ؛ فالرجال متعبون ، ويحتاجون لوقت ليس بالقصير للراحة ؛ ودوابهم ، والخيل منها خاصة ، تحتاج لوقت حتى تستعيد فيه قوتها ونشاطها ، فتسمن وتستعد للحملة القادمة .

بناء على ذلك ، نجد أن « هولاكو » يقضى ، مع جنده ، وقتاً ليس بالقليل ، قبل أن يستأنف العمل ، لإتمام المرحلة الثالثة والأخيرة من مهام حملة المغول الغربية . فعلى الرغم من أنه كان قد رحل من بغداد فى منتصف شهر صفر عام ٦٥٦هـ/ العشر الأواخر من شهر شباط ، فبراير سنة ١٢٥٨م ، إلا أن القوات المغولية لم تعبر نهر الفرات ، لتبدأ غزوها لبلاد الشام إلا فى الأيام الأخيرة من شهر رمضان عام ٦٥٧هـ/أيلول ، سبتمبر سنة ١٢٥٩م . ومعنى ذلك أن المغول قضوا قرابة سنة ونصف وهم يسرحون ويمرحون فى أراضى أقاليم العراق العجمى ، وأذربيجان ، وأرمينيا ، والجزيرة ، دون أى عمل رسمى يقومون به ، حيث لم نجد فى مصادرنا التاريخية التى تسنى لنا الرجوع إليها ، أية رواية ، عن أى نشاط عسكرى قامت به القوات المغولية على نطاق كبير ، طوال هذه الفترة . ورغم ذلك فإن « هولاكو » لم يقض السنة والنصف ، وهو جالس دون عمل يخدم المرحلة التالية لحملته . فقد استغل فترة راحة جنده وكراعه فى إرسال الوفود ، واستقبال السفراء ، كل ذلك بغرض إنجاح حملته الأخيرة ، وتذليل كل ما من شأنه أن يقف حائلاً أمام المغول ، أو ما قد يعرقل أو يؤخر النصر الحاسم والسريع ، الذى كان الهدف الذى يسعى إليه كل مغولى . ولعل رسل الملك الناصر ، الآنف ذكرهم ، كانوا ممن ذهب إليه فى هذه الفترة ، وكانوا من جملة من استقبلهم « هولاكو » فى أذربيجان[٤٦] .

بعد أن استكمل « هولاكو » كافة استعداداته ، بدأ أول مرحلة من هجومه ضد أراضى الشام . فهاجمت جحافل المغول ديار بكر وربيعة ، فأخضعت ما تبقى من إقليم الجزيرة بالعراق ، حيث أخذوا ديسر ، ونصيبين ، وحران ، من أملاك الناصر يوسف ، ثم ساروا إلى البيرة ، وأخذوا قلعتها ، وأخرجوا منها أحد أمراء بنى أيوب ، الذى كان مسجوناً فيها منذ تسع سنين ، فاستعان به المغول فى فتح أراضى الشام(٤٧). وهنا يذكر ابن العميد بأنه عندما سمع الناصر يوسف بأن المغول قد أخذوا الأجزاء الشرقية من مملكته ، شاور كبار دولته ، ومماليك أبيه فى الأمر . وفى النهاية استقر الرأى على التصدى للمغول ، ومناجزتهم بالسيف ؛ فجمع جموعه ، وخرج بهم ، وخيم خارج مدينة دمشق ، إلى الشمال منها فى قرية بَرْزَة . وفجأة اكتشف الناصر مؤامرة ، حيكت بليل على يد الكبار من قادته ، وممن تحمس لملاقاة المغول ، لقتله ؛ لذلك هرب المتآمرون ، بعد معرفة نبأ اكتشاف مخططهم . بعدها تشتت قوات الناصر ، وانحل نظامها ، قبل أن يشتبك مع العدو ، بل وقبل أن يسمع بعبورهم نهر الفرات إلى بلاد الشام ، وطمع فيها القاصى والدانى ؛ فأصبح خائفاً يترقب ، مشرداً ، حتى وقع فى مصيدة حاكها له أحد أتباعه المخلصين ، فأخذ إلى القائد المغولى ، كما سيرد معنا(٤٨).

وهنا نتساءل : لماذا استقر رأى الناصر على قتال المغول ، وكان يخطب ودهم ، كما ذكرنا أعلاه ، وكان قد أضاع فرصة ثمينة فى هذا المضمار ، عندما عرض عليه محمد الكامل ، صاحب ميافارقين ، لِلَمّ الشمل ، والاتحاد ضد العدو المشترك ، الذى جاء ليقضى على الصغير والكبير ، ويدمر كل أخضر ويابسة ؟

لو رجعنا إلى العلاقات السياسية بينه وبين المغول ، طوال العشر سنوات الماضية ، لقلنا بأن الناصر لم يكن فى حقيقة الأمر ينوى مواجهة المغول [illegible] ومناطحتهم فى ميدان القتال ، لعلمه التام بعجزه ؛ إضافة إلى أسباب [illegible] جداً ؛ لعل من بينها :

١ - عدم وحدة البيت الأيوبى ، فقد شارك هو شخصياً فى تفكك هذا البيت بدليل :

(أ) رفض التعاون مع صاحب ميافارقين ضد المغول .

(ب) كان قد هاجم أراضى أمرائهم الباقين فى الشام ، حتى استصفى ممتلكاتهم فيها ، وسجنهم ، وشتت شملهم[٤٩].

٢ - ضعفه من الناحية العسكرية ، فعلى الرغم من أنه كان يملك قوة كبيرة مكونة من المماليك ، والأكراد ، والتركمانيين ، إلا أن وجودهم بهذه التركيبة كان عامل ضعف فى حد ذاته ، وذلك للأسباب التالية :

(أ) أن الأكراد والتركمانيين جاءوا أصلاً إلى الشام هاربين من مقصلة « هولاكو » ، بعد أن دمرهم قائده « كدبو قانويان » ودمر قلاعهم ، وعلى رأسها « درتنك »[٥٠]. فكون الناصر آواهم ، وفوق ذلك استخدمهم فى جيشه ، يجعل المغول أكثر حقداً عليه ، وأشد تصميماً ، لبذل ما فى وسعهم لتدميرهم ، وتدمير من يخدمون ، فهم طلبة « هولاكو » ، بل وطلبة أخيه « القاآن منكو » . فكانت مسألة تدمير الثور والأكراد والتركمانيين من أول الواجبات التى ألقاها المغول وخانهم بها « هولاكو »[٥١]. لذلك ، فقد هربوا ، ونجوا بجلودهم من المغول ، فكانوا سيقومون بالهرب من أمامهم أيضاً لو قابل الناصر المغول وهم من جملة جنده .

(ب) التنافس ، بل والتناحر ، الشديدين بين قوة الأكراد والثور من جهة مع الأتراك المماليك من جهة ثانية . فكل فئة تكيد للأخرى ، وتحسدها على أية مكانة قد تصل إليها لخدمة هذا السيد أو ذاك . فكل طائفة تكيد للفرقة الأخرى ، وتعمل على نفيها واستئصالها . لذلك نجد الأتراك المماليك يعملون فى التخطيط لقتلهم ، بل وقتل الناصر نفسه ، وتوليه من يرون من بينهم[٥٢].

(جـ) عدم استعداد الأكراد للقتال فى صفوف جيش الناصر ، ضد المغول ، لنفس الوارد فى الفقرة قبل السابقة ، إضافة إلى أنهم سبق وخانوه ، وذهبوا إلى خصمه ، الملك المغيث ، صاحب

الكرك والشوبك ، وقاتلوا معه ضد سيدهم الحالى ، رغم إنعاماته واعطياته لهم . أما ما قاله أحد قادتهم ، وهو شخص يدعى بدر الدين الحضرى ، من أنه لم يعارض ويفارق الناصر إلى المغيث إلا لجبن الأول عن ملاقاة المغول ، فإن هذا القول مردود عليه ، لأنه لو كان يود مجابهة المغول ، لما هرب فى الأصل من أمامهم ؛ إضافة إلى أن المماليك تآمروا على قتلهم لأنهم قد عقدوا العزم بألا يقفوا مع المماليك ليقاتلوا المغول ، وهذا ما أورده الأتراك كسبب لتآمرهم عليهم وعلى الناصر .

(د) لم تكن طائفة المماليك راضية عن سيدها الجديد ، الناصر ، على الأقل لسببين :

السبب الأول : أن الناصر لم يلب رغبتهم ، ويسير معهم ضد حكومة المماليك الآخرين فى مصر ، فقد هربوا من هناك خوفاً من صاحبها ، الملك المعز ايبك التركمانى ، الذى أراد تصفيتهم ، لتآمرهم عليه . لذلك لجأوا هاربين منه إلى الناصر ،فأطمعوه فى ملك مصر ، ليس حباً فى الناصر ، وولاء له ، بل للانتقام من ملكها المعز . وكان الناصر يعلم ذلك . إضافة إلى أنه كان يعلم بأن المماليك البحرية لا يمكن أن يثبتوا معه ، كما زعموا ، ضد المغول ، وأكبر دليل على ذلك أنهم سبق وهجروه ، وذهبوا إلى صاحب الكرك والشوبك ، وقاتلوا معه ضد الناصر . أما عودتهم إليه مرة ثانية ، فإن ذلك لم يكن عن طواعية منهم واختيار ، فقد كانت مسألة : سليمهم إلى الناصر أحد شروط عقد صلح الناصر مع المغيث ، بعد هزيمة الأخير فى الاشتباك ، الوارد ذكره أعلاه ، فى أوائل سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م ، على عقبة أريما . « فأخذهم الناصر ، تحت الخوطة إلى دمشق ، وسير البحرية إلى الحصون واعتقلهم بها .. »[٥٣].

السبب الثانى : اشتراك غيرهم معهم (من الأكراد والتركمان) فى جيش الناصر ، وربما أنهم قد أحسوا بأن سيدهم أخذ يفضلهم

على المماليك . لذلك نجدهم يحيكوا مؤامرة للفتك بالناصر وأخيه ، والأكراد والتركمان جميعاً .

٣ – لم يكن مماليكه ولا مماليك أبيه يكنون له الولاء والطاعة ، وخاصة الكبار منهم . وأكبر دليل على ذلك امتناعهم عن أداء اليمين له بالطاعة ، ولم يوافقوا على أداء اليمين إلا بعد أن أعطاهم أموالاً ، وأنعم عليهم انعامات وافرة[٥٤].

٤ – أن الناصر لم يوافق على إعداد الجند والخروج بهم خارج دمشق إلا للطاعة العمياء التى كان يوليها لأمرائه ، من مماليكه ، ومماليك أبيه . « وكان لا يخالفهم فى شيء البتة لاعتماده عليهم .. »[٥٥]. كما كان الناصر يعلم ذلك منهم ، فلو خالفهم فى عدم ملاقاة المغول لتذرعوا بذلك حجة عليه ، وأطاحوا به ، وولوا غيره . ولذلك عندما جاء الجد وأعاد مشاورة مماليكه ومماليك أبيه ، أشاروا فى النهاية بعدم ملاقاة المغول ، وبعدها « ... تقللت العساكر وتصرمت وقلت الحرمة ، وطمع كل أحد ولم يبق عند الملك الناصر والأمراء إلا قوم قلائل ... »[٥٦]. لهذه الأسباب جميعها لم يكن الناصر يود ، بادىء ذى بدء ، مناصبة المغول العداء .

بعد أن أخذ دينسر ، ونصيبين ، والرها ، واستباح سروج ، وبعد أن ترك فصيلتين من جنده لأخذ ميافارقين وماردين ، عبر « هولاكو » نهر الفرات بقواته على ثلاثة جسور ، قامت كل فرقة من أجنحتها الثلاثة بالعبور من على جسر معين لها ، إذ مد جسر بالقرب من ملطية ، عبرت عليه قوات الميمنة ، ونصب آخر عند قرقيسيا ، حيث عبرت قوات الميسرة ، وبنى ثالث عند البيرة ، عبرت عليه قوات القلب ، والتى كان « هولاكو » على رأسها ، وذلك فى رمضان ٦٥٧هـ/سبتمبر ، أيلول ١٢٥٩م . وهناك ارتكب مجزرة هائلة عند منبج . ثم تقدم باتجاه مدينة حلب . وبعد مناوشة خافتة مع نائب الناصر عليها ، الملك المعظم توران شاه ، انهزم ، وهرب صوب حلب وتحصن فى قلعتها .

وصلت قوات المغول حلب ، فحاصروها من جهات أربع[٥٧]. وبعد حصار دام حوالى عشرة أيام استسلمت المدينة فى محرم ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ، وبعدها اقتحم المغول وأعوانهم قلعتها ، بعد حصارها قرابة أربعين يوماً . ثم استسلمت مدينتا حمص وحماه طواعية ، فسلمتا من النهب ونجا أهلها من القتل . أما مدينة دمشق ، فقد تشاور ذوو الرأى وكبار رجالاتها ، فتوصلوا جميعاً إلى أنه يجب إعلان الطاعة للمغول ، والدخول تحت سلطانهم لئلا يلحقهم ما حل بأهل حلب ، التى تذكر الروايات التاريخية بأن من قتل فيها فاق من قتل فى بغداد ، على أيدى المغول وأعوانهم . لذلك فقد استقبل أهل المدينة المغول ، وقدموا مفاتيحها ؛ فدخلوا المدينة ، وسلمت وسلم أهلها[٥٨].

نهاية الناصر يوسف على أيدى المغول :

كان الناصر قد غادر مدينة حلب ، وذهب إلى أختها دمشق ، بعد أن جاءته أخبار تفيد بأن المغول قد أخذوا ممتلكاته فى شرق الفرات . وبعد أن تفرقت عنه أكراده ومماليكه من البحرية وغيرهم ، وعندما بلغته أنباء سقوط حلب ، مدينته ومدينة آبائه وأجداده ، واقتحام المغول لقلعتها ، التى كان يظن بأنها لا تؤخذ أبداً مهما طال حصارها ، عقد العزم على الفرار من دمشق ؛ فهجر الشام وذهب فى طريقه باتجاه مملكة المماليك فى مصر ، وذلك فى منتصف شهر صفر عام ٦٥٨هـ/يناير ، كانون الثانى ١٢٦٠م . حول هذه المسألة يحدثنا ابن العميد ، الذى كان مصاحباً للناصر ومجموعة من كتابه وخواصه ، بأن سيدهم ترك مدينة دمشق « ... ، خالية من العساكر وأهلها على الأسوار يخالفهم ويشتمونهم[٥٩] ويدعون عليهم ويقولون تركتمونا طعم للتتار (المغول) لا كتب الله عليكم سلامة »[٦٠]. ثم يردف هذا المؤرخ ، الذى كان ينقل لنا ما شاهده بعينيه ، قائلاً بأن الناصر وأهله وحريمه ومن صاحبه فى تلك الرحلة « وجدوا من المشاق والشدائد فى الطرقات ما يعجز الوصف عنه ، وسببه أن خروجهم كان فى شدة البرد وقوته ووقعت الأمطار الكثيرة وكثرت الأوحال وتكسرت الجمال من الزلق والأوحال وتهتكت النسوان بين

الفلاحين وتخطف أهل البلاد من قماشهم وما كان معهم وعليهم شيئاً كثيراً وجرت عليهم صعوبات كثيرة عظيمة »[٦١].

وصل الناصر إلى نابلس ، ومنها ذهب إلى غزة ، ثم خرج من الأخيرة إلى العريش ، وهو لم يستقر على رأى معين بعد ، فقد كان يفكر فى بداية رحلته من دمشق بأنه سيذهب إلى مصر ، ولكنه خاف ملكها ، المظفر قطز ، فأرسل إليها زوجته ، وبعض أفراد أسرته[٦٢]. أما هو فإنه غادر العريش إلى الرمل ، ومعه بعض أقاربه وأمرائه . وقد كان أرسل إلى قطز يطلب العون والاتحاد ضد العدو الغازى ، إلا أن عدم ذهابه إلى مصر ، وخروجه إلى الرمل جعل قطز يظن بأن تلك حركة من الناصر يريد الاحتيال والدخول إلى مصر خدعة وخلسة . فشرع قطز فى مكاتبة أمراء الناصر وخواصه المرافقين ، ووعدهم الوعود الحسنة ، فهجروه وذهبوا إلى قطز ؛ ولم يبق معه سوى قلة لا يتجاوز عددهم الخمسة[٦٣].

توجه الناصر ، ومن معه ، إلى قطيا ، ومنها ساروا إلى الشوبك ، ومن ثم اتجهوا إلى الكرك ، من مملكة المغيث ، الذى سأله القدوم إليه فى قلعتها ، إلا أن الناصر خافه ، فرفض قبول دعوة الملك المغيث ، فغادر الكرك إلى البلقاء . ولقد مكث فى أطراف هاتيك الربوع ، حتى فاجأته قوة من المغول ، وهو على بركة زيزا ، إحدى قرى البلقاء فأحاطوا به وبمن معه ، واعتقلوهم ، فأخذوهم إلى قائد المغول العسكرى فى الشام ، كدبوقانويان ، الذى أرسله إلى « هولاكو » ومعه أخوه الملك الظاهر . ولقد كان الأخير استسلم إلى المغول ، ونزل من قلعته صرخد ، فأبقاه القائد المغولى معه حتى جىء بأخيه الناصر ، فأرسلهما ومن معهما إلى سيدة قرب بحيرة وآن . وكان الذى دل على الناصر أحد غلمانه وأتباعه ، وهو شخص يدعى حسين الكردى ، حيث ذهب خلسة إلى « كدبوقا » وطلبه اقطاعاً ليدله على خبر سيده ، فأعطى بغيته ، فقاد جماعة من المغول إلى مكان الناصر ، وكان الكردى قد حسن له المضىء إلى المغول ، فاغتر بقوله ، فدس إلى « كدبوقا » فأرسل من قبض عليه ، وكان حسين الكردى طبردار الناصر[٦٤].

كان « هولاكو » قد رجع من حلب ، وعبر الفرات ، ثم ذهب إلى إقليم أرمينيا ، حيث جيء بالناصر إليه ، وهو مقيم على السواحل الشرقية من بحيرة وآن[٦٥]. وحول هذه المسألة تذكر الروايات ذات الصلة أن « هولاكو » استقبل الناصر أحسن استقبال ، وفرح به ، وأحسن إليه ، وكان يجلسه بالقرب منه على كرسي ، ورتب له راتباً كبيراً ، ووعده بكل خير وجميل ، وأنه يعيد إليه ممتلكاته جميعها[٦٦].

كان هذا التصرف من « هولاكو » ، تجاه الناصر ورفاقه ، أمراً مألوفاً ، وحيلة معروفة منه ؛ فقد فعل الشيء عينه مع كل من الخليفة العباسي المستعصم ، ومع ركن الدين خورشاه[٦٧]. فلقد كان مايزال أمام « هولاكو » بقية من أراضي الشام وفلسطين لم تفتح ، وفوق ذلك مملكة وأراضي مصر ، فلابد من الاحسان إلى هذا الأمير الأيوبي ، بل هو أكبر أفراد أسرته ، ليسهل به إخضاع ما تبقى من هاتيك الأصقاع ، التي مر بفتحها ، حتى يصل إلى حدود مصر الغربية . ونحن نعلم أن « هولاكو » قد ندم على التسرع في قتل الملك محمد الكامل ، صاحب ميافارقين أشد الندم ، فقد كان يريد الإبقاء عليه لنفس الغرض . لذلك كان مقدم الناصر إليه مكسباً ، وورقة رابحة ، ليكسب به أخذ مصر بسهولة ويسر ، ويبارم به حكومة المماليك فيها[٦٨]. إلا أن هذا الأمير المغولي وقع في عين الخطأ السابق مرة أخرى . فعلى الرغم من تجربته مع محمد الكامل وقتله أباه ، وندمه على ذلك ، نجده أيضاً يأمر بشكل متسرع ، وهو في حدة غضبه ، بقتل الناصر ، وكافة أصحابه ، وأتباعه ، ومن معه ، وذلك في أواخر شهر شوال من عام ٦٥٨هـ/منتصف أكتوبر ، تشرين الأول سنة ١٢٦٠م ، عندما جاءته أنباء هزيمة كتيبته العسكرية التي تركها في الشام ، برئاسة « كتبوقانويان » ؛ وعاد هو إلى الشرق على أثر علمه بوفاة أخيه « القاآن »[٦٩].

وفي نظري أن « هولاكو » قد ارتكب عملاً لا يدل على حنكة سياسية ، ولا نظرة عسكرية بعيدة المدى ؛ وهذا بعكس ما عرف به واشتهر عنه وعن آبائه وأجداده ، وأهل بيته في هذا الميدان . فلم تفده تجربة مقتل صاحب

ميافارقين ، الذى كان بإمكانه استخدام محمد الكامل فى تسهيل فتح حلب ، والتى كلفت المغول الشىء الكثير قبل فتحها ، ثم إن الإبقاء على محمد الكامل حيا لدى المغول ، ومجىء بعض رجالات بنى أيوب الآخرين ، وانضمامهم إلى صفوف المغول ، كما فعل الملك السعيد بن العزيز ، صاحب بانياس والأشرف موسى ، صاحب حمص ، واستسلام الملك الظاهر أخى الناصر يوسف ، وغيرهم ، كل هؤلاء كان بإمكان « هولاكو » أن يجعلهم على رأس جيش يسير بهم ضد المماليك فى مصر ، بعد أن يطمعهم فى ملك مصر ، وإعادة أسرتهم الأيوبية كسابق عهدها ، تحكم الشام ومصر ، حتى وإن كان ذلك تحت ظل المغول ، وهذه السياسة سوف توفر على المغول الشىء الكثير ، سياسياً وعسكرياً . ولا أعتقد أن الأمراء الأيوبيين أولئك كانوا سيعارضون ، بل على العكس ، سيجدون ذلك غاية ما يتمناه كل واحد منهم ، لأسباب كثيرة لعل منها :

١ - حبهم فى استعادة ما فقدوه من ممتلكات فى أراضى الشام ، فتعاد لكل واحد منهم إمارته الصغيرة على الأقل .

٢ - تشوقهم الشديد لأن تعيد الأسرة الأيوبية ، كسابق مجدها ، نفوذها على مصر ، حتى وإن كان ذلك تحت ظل حكومة وثنية ، فلربما يأتى ذلك اليوم فيصبحون أقوياء فيستقلون عنهم ، ويصبح لهم الأمر والشأن ، أو لبعضهم .

٣ - حب الانتقام من حكومة المماليك فى مصر لأنها :

(أ) قامت بقتل الأمراء من بنى أيوب ، وهم الحكام وأصحاب الملك فى مصر ، وعلى رأسهم الملك المعظم توران شاه بن الصالح أيوب ، والصالح إسماعيل ، وغيرهما من أسرتهم الأيوبية[٧٠] .

(ب) اقتطاعهم لأراضى وملك مصر ، من تحت النفوذ الأيوبى ، والاستقلال بها ، تحت حكم أفراد كان أشخاصها مماليكاً وخدماً للملوك وأمراء بنى أيوب .

(جـ) حب الانتقام من المماليك ، لما كان بين الطرفين من حروب ، ومعارك ، منذ انفصل المماليك واستقلوا بحكم القطر المصرى ،

بعد مقتل توران شاه ، وكان النصر فيها حليف المماليك .

٤ - سوف ينتصر الأيوبيون ، ومعهم المغول ، على المماليك ، لما عرف عن المغول من الناحية العسكرية ، وشهرتهم فى هذا الميدان ، ثم أن أهالى مصر والشام سوف ينحاز منهم أعداد كبيرة تتعاطف مع الأيوبيين ، وهم حكامهم السابقين ، أما المماليك ، فهم مغتصبوا الحكم من أسيادهم .

إن أمورا عسكرية ، وسياسية غاية فى الأهمية والخطورة مثل هذه ، قد فاتت على « هولاكو » ، ساعة غضبه ، وحزنه الشديدين بمجرد سماعه بهزيمة كتبة من جنده ، ومقتل أعتب جندها ، وقادتها العسكريين ، وعلى رأسهم « كدبو قانويان » نفسه . لذلك كان لتسرعه ، فى اتخاذ قراره الأحمق ذاك نتائج وعواقب سياسية وعسكرية سيئة على مستقبل فتوحات المغول للأراضى الواقعة إلى الغرب من نهر الفرات . فلم تكن هزيمة المغول فى عين جالوت وحدها السبب ، بل ربما لم تكن أى سبب ، فى تعثر ، ونهاية زحف المغول إلى الغرب من ماء الفرات . فهناك أسباب كثيرة تتعلق بوفاة الخان المغولى ، ثم الحرب الأهلية ، التى تلت وفاته لتنافس الأمراء على العرش المغولى ، الأمر الذى أخذ كل اهتمام « هولاكو » ؛ ناهيك عن مسألة مقتل أولئك الأمراء ، فساهم قتلهم فى ضياع ورقة رابحة فى يد « هولاكو » ساعة غضبه ، فجعل من المماليك أناسا جاءوا للانتقام لمقتلهم ، ومقتل آلاف البشر من المسلمين فى الشام وفلسطين . فجعل الأهالى هناك ينسون كون المماليك مغتصبين لعروش بنى أيوب ، وهم خدمهم وعبيدهم ، ويلتفون حولهم .

أما ما يتعلق بحادث مقتل الناصر ومن معه ، فتحدثنا المصادر التاريخية ، ذات الصلة المباشرة ، أن « هولاكو » ، بعد سماعه بهزيمة جنده ، ومقتل قائده ، فى عين جالوت ، تشاءم ، وغضب ، فأمر فى الحال بقتل الناصر ، ومن معه ؛ ورحل من على شواطىء بحيرة وآن ، فى إقليم أرمينيا ، باتجاه تبريز فى أذربيجان . أخذ الناصر ، وأخوه الظاهر ، والصالح إسماعيل ، وجميع من كان معهم ، إلى جبال سلماس ، فذبحوا واحداً بعد الآخر ، ولم ينج من القتل

سوى الملك العزيز محمد ابن الناصر يوسف ، حيث شفعت فيه « توقوز خاتون » زوجة « هولاكو » ، فأرسل إلى مراغة ، مع من أرسل من أولاد الخلفاء والملوك ، وكان من بينهم مبارك شاه بن الخليفة المستعصم ، وقد شفعت فيه نفس المرأة ، عندما قتل المغول والده واخوته ، وكافة أسرته ، بعد سقوط بغداد[٧١].

أما صورة الحال ، التى قتل بها الناصر فقد أوردها ابن العبرى ، عن رجل شاهد عيان ، كان ممن يخدم الناصر ، وممن حكم عليه بالإعدام أيضاً ، ولم ينجه من الإعدام سوى تقوله بأنه منجم ، وأنه يعرف فى علم السماء ، والكواكب ، فتركه المغول ، وأرسلوه إلى « هولاكو » ، فأصبح من الناس الذين انخرطوا فى سلك الخدمة ، تحت إدارة نصير الدين الطوسى ، فى عمل الرصد فى مراغة ، ومنهم ابن العبرى وغيره كثيرون ، يقول ابن العبرى فى هذا الخصوص : « فغضب هولاكو لذلك (لمقتل كدبوقا وهزيمة جنده فى عين جالوت) وتقدم بقتل الملك الناصر وقتل أخيه الملك الظاهر وجميع من معهم . ولم يخلص منهم غير محى الدين المغربى[٧٢]. بسبب أنه كان يقول إننى رجل أعرف بعلم السماء والكواكب والتنجيم وفى كلام أقوله لملك الأرض (يعنى هولاكو) . قال محى الدين المذكور لما اجتمعنا به فى مدينة مراغة . انى لما قلت لهم هذا الكلام أعذونى وأحضرونى بين يدى هولاكو فتقدم أن يسلمونى إلى خواجا نصير الدين . وحكى لنا ما جرى للملك الناصر قال : كنت فى خدمته يوم الأربعاء عشرين شوال وهو يسألنى عن مولده إذ وصل أمير من المغول ومعه خمسين فارساً . فخرج الملك الناصر من الخيمة والتقاه وعرض عليه النزول . فامتنع قائلاً : هولاكو سيرنى ويقول : هذا اليوم لنا فرحة وقد عملنا دعوة وحضر الأمراء كلهم فتحضر أنت وأخوك وأولادك للأمر الذى لك عندنا . فجمع الملك الناصر جماعته مقاربة عشرين نفراً وركبوا وساروا صحبة ذلك الأمير . وبعد ساعة وصل أيضاً عشرون فارساً آخر وقالوا : يحضر الجماعة كلهم ولا يبقى فى الخيم غير الفراشين والمماليك الصغار والطباخين والغلمان . وباقى الجماعة والخيالة والكتاب يحضرون فى الدعوة .

(قال) فأخذونا إلى مواضع أودية عميقة بين حجارة عالية ونزلنا عن الخيل فاحتاط كل واحد منهم بواحد منا وكتفونا . فلما عاينت ذلك بقيت أقول بصوت عال : إنني رجل منجم وأعرف بحركات الكواكب ومعنى كلام أقوله في خدمة السلطان ملك الأرض . فأخذوني وأقعدوني وراءهم مع جملة أتباعهم وشرعوا بقتل الجماعة ولم يخلص منهم غير ولدي الملك الناصر فاستأسروهما هناك[٧٣]. ثم ركبوا وعادوا إلى البيوت التي للملك الناصر ونهبوها وقتلوا باقي الجماعة التي تخلفت هناك . ثم عرضوا الأمر على هولاكو وأنا صرت في خدمة خواجا نصير الدين في الرصد بمراغة وابنا الملك الناصر في خدمته »[٧٤].

وهكذا انتهت حياة كبير بني أيوب ، وأقواهم ، وأكثرهم سعة في المال والجاه والوطن ، على أيدي المغول ، مذبوحاً كما تذبح الشاة ، بعد أن تهاون ، بل تقاعس عن قتالهم أيام كانوا بعيدين عن أراضيه وهم في العراق ، فقاه برد محمد الكامل مكسور الخاطر من عنده ، وهو يدعوه إلى الاتحاد والتعاضد والجد في قتال العدو الغازي ، فما كان من الناصر إلا أن استخف برأيه وسفهه . كما كان الناصر ، على ما يبدو لي ، هو المسؤول عن تفكك بني أيوب ، وصراعهم المفيت ، الذي طال مداه فيما بين أمراء هذه الأسرة ، ثم حروبه مع المماليك . فهل جنى بنو أيوب من تفككهم ومهاتراتهم السياسية ، وقتل وسجن بعضهم بعضاً إلا القتل والتشريد ، والذل والمهانة ، والعار على المحارم ، وفوق ذلك كله زوال الملك ، والنعمة . فوالله إنه : « لا جماعة لمن اختلف » . و « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » صدق الله العظيم .

هوامش وتعليقات البحث :

(١) ولد تيموجين فى عام ٥٤٩هـ/١١٥٥م فى مكان يعرف بـ « دبلون بولدا ق » على المجرى السفلى لنهر « آونون » . لمعلومات أوفر فى هذا الموضوع ، انظر : رشيد الدين فضل الله الهمدانى ، جامع التواريخ ، تحقيق بهمن كريمى ، طهران ، ١٣٣٨هـ . ش ، جـ١/ص ٢٣٣ ؛ بناكتى ، فخر الدين أبو سليمان ، تاريخ بناكتى ، تحقيق د. جعفر شعار ، طهران ، ١٣٤٨هـ ش ، ص ٣٦٢ . كذلك انظر الحواشى رقم ١ فى ص ٥٧ ورقم ٢ ، ٣ فى ص ٥٨ من كتابنا سقوط الدولة العباسية ، بيروت ، ١٤٠١هـ . أما ما يتعلق بمعنى جنكيز خان ، فقد شرحنا ذلك فى كتابنا آنف الذكر فى ص.ص ٧٥ - ٧٦ ولمعلومات أوفر فى ذلك راجع حواشى ص ٧٦ .

(٢) لمعلومات عن مراحل طفولة وشباب جنكيز خان راجع رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ١ ص.ص ٣٣ ، ٢٤٠ ، ٣٣٦ ؛ مجهول المؤلف ، تاريخ المغول السرى ، الترجمة الانجليزية ، ارثروولى ، لندن ، ١٩٦٣م ، ص ٢٢٦ ، الطبعة الفارسية ، « تاريخ سرى مغولان » ، ترجمة د. شيرين بيانى ، طهران ١٣٥٠هـ . ش ، ص.ص ٢٤ - ٢٥ . كذلك كتابنا سقوط الدولة العباسية ، ص.ص ٥٩ - وبعدها .

(٣) فى أواخر القرن السابع الهجرى/١٣ للميلاد ، كانت امبراطورية المغول تمتد من المحيط الهادى وجزر اليابان شرقاً ، ومن الهند الصينية فى الجنوب الشرقى إلى جبال الأبلاش وبحر البلطيق وآسيا الصغرى ونهر الفرات غرباً ، ومن سيبريا شمالاً إلى جبال الهملايا ونهر السند والبحر العربى جنوباً .

(٤) لقد درسنا مراحل توحيد قبائل المغول ، وجهود جنكيز خان ، فى كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ص.ص ٦١ إلى ص ١٠٦ . لذلك فإن أى معلومات تتعلق بهذا الشأن سيجدها القارىء الكريم فى مصادر الكتاب المذكور ، والمنوه عنها فى حواشى تلك الصفحات .

(٥) كانت حروب جنكيز خان ضد امبراطورية « التنكوت » أو « هسى هسيا » قد استمرت فى خلال السنوات : ٦٠١هـ/١٢٠٤م ، ٦٠٣هـ/٦٠٦هـ/ ١٢٠٩ - ١٢١٠م . لمعلومات أوفى انظر : رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ١/ ص.ص ١٠٢-١٠٥ ، ٢٠٦-٦٠٨ كذلك Martin, H.D. The Mongol Wars With Hsi-Hsia. (1205 – 1227) JRAS, 1942. pp 192 – 228, Saunders, J.J.

The History of the Mongol Conquests, London, 1971, p 53; Fox, E., Genghis Khan, London, 1963, p 143; Walker, C.C. Jenghiz Khan, London 1939, p.p. 39 – 44.

(٦) ما يتعلق بحروب جنكيز خان ضد أراضي الامبراطورية الصينية الشمالية « جين » راجع : رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ١/ ٣٢٠ – ٣٣١ ، كذلك المراجع الانجليزية التالية :

Douglas, R.K. The life of Jenghiz Khan, translated from the chinese contemporary chroniclers, London, 1877, pp: 60 – 75; Vladimirtsov, B.Ya. The life of Chingis – Khan, translated from the Russian by Prince D.S. Mirsky, London, 1930, pp: 93 – 100

انظر الترجمة العربية التي قمت بها ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص.ص : ١٣٦ – ١٤٨ ؛

Martin, M.D. The Rise of Chingis Khan and his Conquests of North China, London, 1950, pp: 170 – 171; Lamb, H., The March of the Barbarians, London, 1941, pp: 59 – 60; Philips, E.D., The Mongols, London, 1969, pp: 53 58; Prawdin, M., The Mongol Empire, it's Rise and legacy, London, 1941, pp: 116 – 123; Saunders, The History of the Mongol Conquests.

(٧) لمعلومات تفصيلية عن ظروف وتاريخ مقتل أو وفاة جنكيز خان والمصادر المتعلقة بذلك ، وذات الصلة المباشرة ، راجع كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ص.ص ١٣٦ – ١٤٠ وما ورد في حواشي هاتيك الصفحات من مصادر حول هذا الموضوع .

(٨) لقد فصل المؤرخ الفارسي المسلم ، عطا ملك الجويني ، في كتابه الموسوم بـ « تاريخ جهانكشاى » أي تاريخ فاتح العالم ، تحقيق الأستاذ المرحوم محمد بن عبد الوهاب القزويني ، طبع بريل ، بهولندا ، سنوات ١٣٢٩ ، ١٣٣٤ ، ١٣٥٥هـ/١٩١١ ، ١٩١٦ ، ١٩٣٧م جـ١ ، ص.ص ١٤١ – ١٤٩ في هذا الموضوع . راجع كذلك رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ١/ ص.ص ٤٥٢ – ٤٥٤ ثم كتابنا سقوط الدولة العباسية ، ص.ص ١٤٤ – ١٤٥ وحواشي هذه الصفحات ، وقد حكم « اكتاى » من عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م إلى عام ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م . لمعلومات عن فتوحات المغول في عهده ، راجع كتابنا الآنف ذكره ،

ص.ص : ١٤٦ ١٥٦ ، وما ورد في تلك الصفحات من مصادر مباشرة ، وبلغات تختلفه ذات علاقة .

(٩) حكم « كيوك خان » من عام ٦٤٤هـ/١٢٤٦م حتى وفاته في ٦٤٦هـ/١٢٤٨م . راجع الجويني ، جهانكشاي ، ج١ص ٢١٥ ، كذلك الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب الهام بعنوان :

The History of the World Conqueror, by: prof. J.A. Boyle, Manchester University Press, Manchester, 1958, Vol. I/ pp: 261F

كذلك رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ج١ص ٥٧١ ، والترجمة الانجليزية لذلك بعنوان :

The Successors of Genghis Khan, by: Prof. J.A. Boyle, New York, 1971, p: 185.

إذا لم يتوفر هذان المصدران فراجع كتابنا سقوط الدولة العباسية ص.ص ١٥٧ ١٥٩ .

(١٠) كل ما يتعلق بالصراع الداخلي ، بين أحفاد « جنكيز خان » حول الأحقية في تولية العرش ، راجع مصادرنا الواردة في كتابنا سقوط الدولة العباسية ، من صفحة ١٦٠ إلى صفحة ١٦٣ ، وما قيل في هاتيك المصادر في هذا الشأن ، وخاصة في جامع التواريخ لرشيد الدين ، وجهانكشاي ، للجويني .

(١١) لقد فصلنا في كتابنا آنف الذكر ، حول تصفية وانهاء أمر الحشاشين الاسماعيلية في إيران ، وكذلك سقوط الخلافة العباسية ، في الصفحات من ١٦٧ وبعدها ، فللمزيد حاول أن تراجع مصادر مادتنا في ذلك الكتاب ، فلا أرى داعياً لسردها للقارىء الجليل هنا .

(١٢) انضم مع « هولاكو » حكام مسلمون ، كبدر الدين لؤلؤ ، وحكام كرمان ، وفارس ، وآسيا الصغرى ، ضد مسلمي العراق . راجع ذلك في الفصل الخامس من كتابنا سقوط الدولة العباسية . أما ما يتعلق بصاحب ميافارقين محمد الكامل ، فقد بحثنا موضوعه ، وكيفية قتاله المغول في بحث سينشر قريباً في مجلة دارة الملك عبد العزيز تحت عنوان : « بطولة وفداء في ميافارقين » .

(١٣) كان يحكم في حصن كيفا وقلعة الهيثم ، الواقعتان في ديار بكر ، الملك الموحد ابن تورانشاه ، وفي ميافارقين محمد الكامل ، وفي حماة المنصور بن المظفر ، وفي حمص الأشرف ابن المنصور ، بتركوه ثم أخذت منه وسلم عوض عنها تل باشر والرحبة وتدمر ، وفي بانياس والصبيبة الملك السعيد حسن بن عبد العزيز عثمان بن

العادل ، وفى الكرك والشوبك الناصر داود بن المعظم عيسى ، ثم أخذت منه إلى الصالح أيوب ، وبعدها إلى فتح الدين عمر ، وفى صهيون وبرزية وبلاطفس مظفر الدين عثمان بن منكورس ، أما الملك الناصر يوسف ، موضوع بحثنا هذا ، فكان يحكم حلب ، ثم أخذ بعدها دمشق ، وضم فيما بعد بعلبك ، وعجلون ، وشيزر وغيرها ، لمعلومات عن مواقع هذه الأماكن ، راجع المعجم الجغرافى لياقوت الحموى ، حسب حرف كل موقع ، كذلك راجع الكتب التالية عن الحكام المذكورين أعلاه ، أبو شامة ، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل ، « تراجم رجال القرنين السادس والسابع » المعروف بـ « الذيل على الروضتين » بيروت ١٩٧٤م . ص.ص ٢٠٠ وبعدها ؛ أبو الفداء ، عماد الدين إسماعيل ، المختصر فى أخبار البشر ، بيروت ، غير معروف سنة الطبع ، الجزء الثالث ، فى صفحات متفرقة (١٦٥ - ٢٢١٣ ؛ ابن تغرى بردى ، أبو المحاسن يوسف ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م جـ٧/ص ١٥ على سبيل المثال ، وغيره هذه المصادر المتعلقة بتاريخ بنى أيوب فى الشام . أنظر كذلك الحاشية رقم ٤٧ ، ورقم ٤٩ من هذا البحث ، لمعرفة أمثلة فقط على معاملة بنى أيوب بعضهم للبعض الآخر .

(١٤) لمعلومات عن الحروب الأهلية بين أمراء بنى أيوب ، راجع : ابن العميد ، المكين جرجس ، أخبار الأيوبيين ، ص.ص ١٤٨ وبعدها ؛ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ، المنسوب لكمال الدين عبد الرازق بن الفوطى ، تحقيق مصطفى جواد ، بغداد ، ١٣٥١هـ/١٩٣٢م ، ص.ص ٢٠١ على سبيل المثال ؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٢م ، ص.ص ٧٠٨ وبعدها ؛ شمس الدين ، أحمد بن محمد الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٩م ، جـ٥/ص ١٥٢ ، ١٦٤ ، ١٧١ ، ١٧٣ وبعدها ؛ ابن كثير ، أبو الفداء الحافظ ، البداية والنهاية ، بيروت ، ١٩٦٦م ، جـ١٣/١٤٨ وبعدها ، ١٧٩ وبعدها ٢١٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٦/ص.ص ٣٠٣ وبعدها . ثم تتبع حوادث السنين بعد وفاة محمد الكامل ابن العادل ؛ المقريزى ، كتاب السلوك ، ٢/١ ، ص ٢٧٥ وبعدها .

(١٥) ولد الناصر يوسف فى رمضان عام ٦٢٧هـ/أغسطس ١٢٣٠م ، فى قلعة حلب ، انظر : ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص ١٤٣ ؛ ابو شامة ، تراجم ، ص.

٢١٢ ؛ ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق : د. حسنين ربيع ، دار الكتب بالقاهرة ، ١٩٧٢ ، جـ٤ ، ص ٢٨٣ ؛ ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، ١٩٧١م ، جـ٤/ص ١١٠ ؛ ابن شاكر ، محمد بن شاكر الكتبى ، فوات الوفيات ، تحقيق : احسان عباس ، دار صادر ١٩٧٤م ، جـ٤/ص ٣٦١ ، الحنبلى ، أحمد بن إبراهيم ، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، دار الحرية ، العراق ١٩٧٨م ، ص ٤٠٨ كذلك حاشية رقم ٢٠٦ من نفس الكتاب هذا .

(١٦) هى ضيفة خاتون بنت العادل ، وقد ظلت تدير مملكة حفيدها حتى توفيت ، وكان يعاونها أمراء كثيرون يتصدر قائمتهم الأمير شمس الدين لؤلؤ الأرمنى (وقيل الأمينى) ، والأكرام ابن التفطى ، وعز الدين الحلى ، والطواشى جمال الدولة ، واقبال الخاتونى . انظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٧/ص ٢١ ؛ ابن إبراهيم الحنبلى ، شفاء القلوب ، ص ٤٠٨ ، لمعلومات عن والده العزيز (٦٠٩ ٦٣٤هـ) انظر سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٧٠٣ ؛ أبو شامة ، تراجم ، ص ١٦٥ ؛ الذهبى ، العبر ، جـ٥ ص ١٤٠ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، جـ٣/ص ١٥٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٣/ص.ص ١٤٥ - ١٤٦ ؛ ابن العماد ، شذرات ، جـ٥/ص ١٦٨ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦/ ص ٢٩٧ .

(١٧) كان على رأسهم أتابكة شمس الدين لؤلؤ ، (وقيل لولو ، ولالا) ابن عبد الله الأرمينى فكان الناصر لا يخالف له أمراً ، وظل كذلك حتى قتل على يد المماليك فى الوقعة الحربية التى قادها وهو على رأس جيش سيده ضد المماليك ليأخذ منهم مصر . كما سيرد معنا فى ثنايا البحث هذا . لمعلومات إضافية عنه انظر سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص.ص ٧٨٣ - ٧٨٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٧/ص ٢١ ؛ ابن العماد ، أبو الفلاح ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، جـ٥/٢٩٩ ، انظر الحاشية رقم ٢٦ من هذا البحث .

(١٨) « وقد زاد ملكه على ملك أبيه وجده ، فإنه ملك حلب ، وحران والرها والرقة وراس العين وما مع ذلك وملك حمص ودمشق وبعلبك والأغوار والساحل إلى غزة .. » . انظر سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ٧٧٩ - ٧٨٠ ؛ أبو شامة ، تراجم ص ١٨٦ ؛ راجع أيضاً وفيات الأعيان لابن خلكان ، جـ٤/ص ١١٠ ؛ ابن شاكر ، فوات ، جـ٤/ص ٣٦١ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، جـ٣/ص.ص ١٧١ - ٢١٢ ؛ الحنبلى ، شفاء القلوب ، ص.ص ٤١١ - ٤١٣ - ٤٢١ .

(١٩) كان اللقاء في مكان اسمه الكراع قريباً من الخشبي في الرمل ، انظر المكين جرجس ، أخبار الأيوبيين ، ص ١٦٢ . ويقول أبو شامة أنها كانت على مكان يعرف بـ « سمرط » بين الخشبي والعباسية ، تراجم ، ١٨٥ - ١٨٦ . انظر سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص.ص ٧٨٠ - ٧٨١ ؛ الذهبي ، العبر ، جـ٥/ص.ص ١٩٧ - ١٩٨ ؛ المقريزي ، السلوك ، ٢/١ ص.ص ٣٧٢ - ٣٨٧ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٧/ص.ص ٧ - ١٠ .

(٢٠) كانت حفيدة الملك العادل القطبية بنت قطب الدين بن العادل ، وهي من عمات الملكين الأيوبيين المتخالفين والمتحاربين ، انظر أبو الفداء ، مختصر ، جـ٣/ص.ص ١٩٧ - ١٩٨ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٧/٣١٩ وبعدها .

(٢١) لم يذكر المؤرخ الجويني ، اسم أخي صاحب حلب المرسول إلى منغوليا . ولعل الأمر قد اشتبه على مؤرخنا ، إذ لم نعثر في مصادرنا على أن الملك الظاهر غازي ، وهو أخو صاحب حلب المعني هنا ، قد ذهب إلى القاآن المغولي ، وإنما كان الشخص الذي أرسل هو زين الدين الحافظي ، كما سيرد معنا في هذا البحث . وقد جاءت عبارة الجويني كما يلي : « ... ، واز حلب برادر صاحب حلب .. » . « وابن جماعت هريك باجندان حمل كه لايق جنان حضرتي باشد بيامدندوار اطراف ديكر جندان الملحيان ورسل بودكه قرب دو هزار خركاه جهت ايشان معد كرده بودند .. » . جهانكشاى ، جـ١/ص ٢٠٥ - ٢٠٦ . وقد أورد ابن العبري ، كريكوري أبو الفرج ، تاريخ مختصر الدول ، ترجمة المؤلف نفسه من اللغة السريانية إلى اللغة العربية (باختصار شديد عما ورد في الأصل) حققه صالحاني ، بيروت ، ١٩٥٨م ، رواية بنفس المعنى ، ص ٢٥٦ . انظر أيضاً رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ١/ص ٥٦٨ . وقد أورد لنا في هذا الخصوص ورحالة أوروبي ، كان ممن شاهد رسل المسلمين ، وقال بأن أكثر من عشرة من السلاطين المسلمين أرسلوا وفوداً يمثلونهم لدى البلاط المغولي . انظر :

John de Plano Carpini, History of the Mongol, Ed. by: C. Dawson «The Monogl Mission» London and New York, 1955, p: 62.

(٢٢) يارليغ ، أو يرليغ ، وبايزا أو بيزه ، كلمتان مغوليتان ، معنى الأولى رسالة ، أو قانون ، أو منشور ، أو إقرار ، أو بلاغ ، أو جواب خطي من الخان . أما الثانية فهي عبارة عن لوح من الذهب ، أو الفضة ، أو الخشب ، طوله حوالي نصف ذراع ، وعرضه شبر تقريباً ، منقوش عليه اسم الله ، ثم اسم الخان المغولي الحاكم ، الذي ينعم بهما الخان على الشخص الذي يحوز على ثقته ، ويعتبر حامله من أتباع

الخان المغولي . ويطلب من كل أمير أو حاكم أو نائب مغولي أن يقدم لك من جمل هذين الشعارين ، أو أحدهما كل مساعدة وحماية . ويعتبر حاملها ، في بعض الأحيان وفي حالات فردية ، معفى من الضرائب .

(٢٣) ينتمي الأمير والنائب المغولي أرغون آغا ، إلى قبيلة « أويرات ، اويرات » ، فقد جاء إلى حكم أراضي الامبراطورية المغولية في الجنوب الغربي منها خلفاً لرجل اويغوري يدعى « كركوز » . وقد ظل يحكم هذه الولايات الغربية خمس عشرة سنة تقريباً (٦٤١ إلى ٦٥٤هـ/ ١٢٤٣ - ١٢٥٦م) حيث قدم « هولاكو » من الشرق . وقد توفي في ذي الحجة من عام ٦٧٣هـ/حزيران ، يونيه سنة ١٢٧٥م . انظر مقدمة المرحوم القزويني ، لكتاب « الجويني ، جهانكشاى » جـ١/ص.ص ٥ وبعدها . أورد الجويني نصه في هذا الشأن كما يلي : « ... ، وحكم ممالك خراسان وما زندران وهندوستان وعراق وفارس وكرمان لورو واران واذربيجان وكرجستان وموصل وحلب وركف أو نهاد وهريك درخدمت بودند .. » ، جهانكشاى ، جـ٣/ ص ٧٤ .

(٢٤) هو الصاحب زين الدين محمد المعروف بالحافظي من قرية عقربا إحدى قرى دمشق . وقد سفّر عدة سفرات للمناصر لدى المغول ، كما يرد معنا ، وكان يرى بعدم مقاومة المغول ، الذين استتبوا ولاية حلب إليه فيما بعد . وبعد انتصار المماليك على المغول في عين جالوت ، هرب مع من هرب من ولاية حلب .

(٢٥) أورد رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ٢ ، ص ٧١٨ نصه في هذا الشأن كما يلي : « سلطان حلب وزير خويش صاحب زين الدين حافظي رابا تحف وهداياى شاهوار به بندكى حضرت قاآن فرستاده بود واو درآن دركه معرفتى وشهرتى حاصل كرده وبرليغ وبايزه درباره او نافذ كشته » . لمعلومات إضافية عن الرسل وما يتعلق بالهدايا التي تقدم للخان المغولي ، وطقوس تقديمها ، انظر :

John Carpini, The Mongol History, pp: 54–66; Bendict Brother, The Narrative, Ed. by: C. Dawson, «The Mongol Mission», pp: 79–80.

وقد كان هذان الرحالتان ممن ذهب إلى « قراقروم » ، وقابلا خانات المغول ، وظلا بين ظهرانيهم فترة من الزمن ، وعرفا كل شيء عن المغول . لمعلومات عن هذين الرحالتين ، انظر : كتابنا « أوضاع الدول الإسلامية في المشرق الإسلامي » ١٤٠١هـ ص.ص ٣٧ - ٣٨ . انظر كذلك الحاشية رقم ٣٦ من هذا البحث .

(٢٦) الخياصة هي الحزام ، أو المنطقة الوسطى من قامة الرجل . انظر المكين جرجس (ابن العميد) أخبار الأيوبيين ، ص ١٦٣ . وقد كان شمس الدين هذا هو المشرف والمدبر لمملكة وشؤون الناصر يوسف ، حيث أشار وحرض سيده بأن يغزو مصر ، ويستعيدها تحت حكم الأسرة الأيوبية ، بعد أن قتل المماليك توران شاه بن الملك الصالح أيوب ، واستولوا على حكمها . وقد قتل في تلك المعركة مع من قتل . انظر الحاشية رقم ١٧ من هذا البحث وكذلك الحاشية رقم ٣٦ .

(٢٧) لمعلومات عن « اغول - غايميش » وفترة وصايتها ، انظر : الجويني ، جهانكشاى ، جـ١/ص ٢١٧ وبعدها ؛ رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ١/ص ٥٨٠ كذلك انظر :

«Rubruck, Friar William, The Journey of William of Rubrauck to The Eastern Part of the World», Ed. by: W.W. Rockhill, London, 1900, «The Mongol Mission», by: C.Dawson, pp: 203.

(٢٨) ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص ١٦٣ . كان بايجونويان قد خلف تشرماغون نويان كنائب وحاكم عسكرى للمغول على الأراضى الواقعة إلى الجنوب الغربى من امبراطوريتهم ، وذلك فى عام ٦٤٠هـ/١٢٤٢م ، وأخضع آسيا الصغرى بعد معركة كوسه داغ سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م أيام سلطان السلاجقة غياثات الدين كيخسرو الثانى (٦٣٤ - ٦٤٣هـ / ١٢٣٦ - ١٢٤٥م) ، وذلك خلال فترة وصاية « توراكينا خاتون » زوجة الامبراطور المتوفى « اكتاى » . انظر التفاصيل فى ابن بى بى ، الأمير نصير الدين حسين بن محمد ، مختصر سلجوق نامه ابن بى بى ، « أخبار سلاجقة روم » ، طهران ، ١٢٥٠ ، ١٣٥٠هـ . ش ، ص.ص ٢٤٣ - ٢٥٠ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٢ ؛ كتاب سقوط الدولة العباسية ، ص.ص ٢٦٠ - ٢٦٦ . راجع أيضاً :

Friar William Rubruck, The Journey, p:17; Grigor of Akanc. History of the nation of the Archers (The Mongol) Ed. and trans., by: R. Black, and R.M. Frye, Harvard University Press, 1954, p:41.

(٢٩) أرسل « هولاكو » مجموعة من الرسائل إلى الحكام المسلمين ، فى هذا الشأن ، فى كل من إيران وآسيا الصغرى ، وإلى الخليفة العباسى ، وبدر الدين لؤلؤ ، على اعتبار أنهم خاضعون تحت المظلة المغولية ، فواجب التبعية المغولية تحتم عليهم الاستجابة لدعاتهم إذا دعاهم ، ليسهموا بشكل أو بآخر فى حملات المغول العسكرية ، وضد أى كان ، حتى وإن كان ضد الأعوان والوطن والدين ،

حسب منطق المغول والتبعية والولاء لهم . راجع في هذا الخصوص كتابنا سقوط الدولة العباسية ، ومصادر مادته ، في ص ٢٦٠ حيث ناقشنا ذلك بنوع من التفصيل .

(٣٠) ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص ١٦٣ .

(٣١) نفس المصدر السابق ، ص ١٦٨ .

(٣٢) ذكر ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص.ص ١٦٨ - ١٦٩ ، بأن وفادة الناصر ضمت معها أيضاً أناساً مثل « الأمير سيف الدين الجاكي ، وعلم الدين قيصر الظاهري الحاجب وجماعة من الجند » .

(٣٣) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص.ص ٢٨٧ ٢٨٨ . قارن هذه الرسالة بتلك التي جاء بها رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ٢/ص ٧١٥ ، فهي أقصر من هذه بكثير . وقد نقلناها لكونها أقرب إلى الصحة ، لأن المؤلف كان ممن خدم المغول أيام « هولاكو » وابنه « آباقا » ، فكان معاصراً . كما كان مصاحباً لنصير الدين الطوسي الذي كتب الرسالة .

أما ما يتعلق بجملة وردت في الرسالة « وليت عندنا أنكم فجرة » فقد جاءت مع غيرها من الجمل في الرسالة ، من شخص عدو لا يمكن للمؤرخ ، الذي يتحرى الصدق ويبحث عن الحقيقة ، أن يقبلها على علاتها . ولكن ورد في مصادر موالية ، وذات صلة ، لبني أيوب تذكر شيئاً ربما يتخذه البعض كمؤشرات لما ذهب إليه صاحب الرسالة . فقد ورد في مصنف أبي شامة عن سبط الجوزي ، أثناء كلامه عن وفاة السبط ، قوله : « وكان منكراً على أرباب الدولة ما هم عليه من المنكرات » تراجم ، ص ١٦٥ . ويقول الذهبي ، في العبر ، جـ٥/ص ٢٥٧ ، عن الناصر يوسف « وكان الناس معه في بلهنية من العيش ولكن مع إدارة الخمر والفواحش » ، انظر أيضاً ابن العماد ، شذرات جـ٥/ص ٣٠٠ . وقد أورد صاحب النجوم الزاهرة ، جـ٧/ص.ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ، نقلاً عن ابن العديم ، وهو أكبر المؤرخين أيام الناصر يوسف ومن خاصيته ، من أن هذا الأمير الأيوبي شارب للخمور ومجاهر بها .

(٣٤) ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص ١٦٨ . فيما يتعلق بالوفود إلى الأمير المغولي راجع ما قلناه في هذا الصدد في كتابنا سقوط الدولة العباسية ، ص.ص ٣٥٢ - ٣٦٩ .

(٣٥) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص ٢٧٨ .

(٣٦) الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص ٤١٦ . انظر كذلك ابن الفوطي ، المنسوب إليه « الحوادث الجامعة » ص ٣٣٩ . ويبدو لنا أن العام الذي أورده صاحب الحوادث (٦٥٧هـ) كان يقصد به العام السابق ، أي عام ٦٥٦هـ أو أن هذه الرسل كانت غير تلك التي في عام ٦٥٦هـ ، والتي لم يشر إليها هذا المؤرخ . لأن المصادر التي بين أيدينا تكاد تتفق على أن رسالة « هولاكو » للناصر كانت في عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، وأن الرسل رجعوا في العام التالي . حول مراسلة الناصر و « هولاكو » يذكر الذهبي ، العبر ، جـ٥/ص ٢٢١ من أن الناصر بعث بولده مع الحافظي في رمضان في سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م أي قبل غزو بغداد ، ومعهما هدايا . ويذكر المقريزي ، السلوك ١ ، ٢/ص ٣٧٩ أن الناصر تعلم في عام ٦٤٨هـ طمعا من القاآن وصار يحملها في حياصته ، وأنه أرسل إلى القاآن هدايا كثيرة . وأن « هولاكو » كان يستنكر على الناصر عدم إرساله أي شيء . ثم يردف في ص ٤١١ أن الناصر أرسل ابنه إلى « هولاكو » ، ومعه هدايا وأنه سأله على لسان أبيه النجدة ضد المماليك لأخذ مصر ، لهذا السبب فارقته المماليك وذهبوا إلى المغيث ، وأن ابنه عاد إلى أبيه سنة ٦٥٧هـ ، ومعه رسالة ورد معناها عند المقريزي (ص ٤١٥ - ٤١٦) كغيره ، وفيها التهديد والوعيد ، وأن الناصر هرب لما سمع بقدوم « هولاكو » باتجاه الشام . وهذا تناقض رهيب ، ولا عكس قوله من المقريزي ، الذي جاء بالكثير من التعارضات والمتناقضات . فالمماليك ، لم يذهبوا إلى المغيث لهذا السبب . وسنتكلم عن ذلك بعد قليل . كما أن الناصر لم يطلب نجدة من « هولاكو » ، وإلا لما هرب من وجهه عندما عبر الأول نهر الفرات . وقد ناقض نفسه المقريزي في ص.ص ٣٩١ - ٤٠٦ . أما ابن العماد ، شذرات ، جـ٥/ص.ص ٢٧٢ - ٢٧٣ ، فيذكر أن « هولاكو » أرسل ، مباشرة بعد سقوط بغداد ، خطاب إلى الناصر ، ثم ثان ، وثالث ، ومضمونها جميعاً كذلك الذي أوردته بقية المصادر . أما ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٣/ص ٢١٥ فقد ذكر بأن « هولاكو » أرسل إلى الناصر يستدعيه فأرسل الأخير ولده ومعه هدايا ، إلا أن « هولاكو » غضب ولم يقبل منه ، وقال « أنا أسير إلى بلاده بنفسي » . ومن المعروف أن هؤلاء المؤرخين (المقريزي ، ابن العماد ، ابن كثير ، والذهبي وغيرهم) قد جاءوا بعد هذه الأحداث بما لا يقل عن مائة سنة . فكانوا ينقلون ، ويضيفون عما ينقلون ، من غيرهم .

(٣٧) وقد ورد النص الفارسي « ... ، وجون هولاكو بايران زمين رسيد ، أحياناً در خفية اظهار مطاوعت وهوا دراى كرد (يعني الناصر) وپيش سلاطين شام بآن

سبب منهم شدوقصد اوكروند ، بكريخت وباه بندكى هولاكو خان آورد وداعيه بادشاه بعزم حلب زيادة كشت .. » . جامع التواريخ ، جـ٢/ص ٧١٨ ، انظر الترجمة العربية من الطبعة الفرنسية ، للأستاذ نشأت وآخرين ، بيروت ، ١٩٦١م ، جـ٢/ص ٣٠٥ .

(٣٨) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ٢/ص ٧٢٠ العربية ، جـ٢/ص.ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٣٩) ابن العميد ، أخبار ، ص.ص ١٦٤ - ١٦٨ .

(٤٠) نفس المصدر السابق ص ١٦٤ . وقد سعى في الصلح بينهما رسول الخليفة ، وأعطى الناصرُ إلى المعز القدس الشريف وبلاده ، وغزة وبلادها وجميع البلاد الساحلية إلى حدود نابلس . وقد أعيدت إلى الناصر بعد ذلك ، عندما ذهب المماليك الهاربون من المعز إليه . كان العلامة نجم الدين أبو محمد عبد الله بن أبي الوفاء محمد بن الحسن الشافعي الفرضي (٥٩٤ - ٦٥٥هـ) المنسوب إلى بادرايا ، قرية من أعمال واسط في العراق ، من أبرز علماء عصره . وقد سعى في الصلح ، كرسول من خليفة بغداد (المستعصم ، والمستنصر قبله) في الخلافات التي كانت لا تفتر بين الأمراء الأيوبيين أنفسهم ، ثم بعد ذلك بينهم وبين المماليك . لمعلومات أوفى عنه انظر : أبو شامة ، تراجم ، ص ١٩٨ ؛ العبر للذهبي ، جـ٥/ص ٢٢٣ ؛ الشذرات لابن العماد ، جـ٥/ص ٢٦٩ . وغيرها من الكتب ذات العلاقة .

(٤١) لقد تطرقنا إلى هذه المسألة بالتفصيل في مقال لنا سيصدر قريباً في مجلة الإدارة ؛ أنظر الحاشية ١٢ في هذا البحث .

(٤٢) ربما يعني رشيد الدين ، جامع التواريخ جـ٢/ص ٧١٥ ، الترجمة العربية ، جـ٢/ص ٢٩٦ ، عام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م ، وهذا ما يظهر من أسلوب رسالته إلى الناصر حيث يقول : « .. وما بعد فقد نزلنا بغداد سنة ست وخمسين وستمائة ... » وربما كان في العام القادم من هذا ، أي عام ٦٥٧هـ .

(٤٣) ابن العميد ، أخبار ، ص ١٦٩ .

(٤٤) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص ٢٧٨ . انظر كذلك « الحوادث الجامعة » المنسوب إلى ابن الفوطي ص ٣٣٩ .

(٤٥) « الحوادث » المنسوب لابن الفوطي ص ٣٣٩ .

(٤٦) فيما يتعلق بوفود الحكام المسلمين التي وفدت على « هولاكو » ، وما بذلوه من التذلل والخنوع لهذا القائد المغولي ، حتى أن بعضهم رسم صورته على حذاء وقدمها هدية « لهولاكو » ليشرفه بالوطء بقدميه عليها ، انظر المصادر في هذا

الشأن الواردة في حواشي الصفحات ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٨ من كتابنا سقوط الدولة العباسية .

(٤٧) هو الأمير « الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل بن أيوب » ، وكان صاحب بانياس وقلعتها المعروفة بـ الصبيبة ، فهاجمه الناصر يوسف ، وأخذها منه ، واعتقله وأرسل به إلى البيره فسجن بها تسع سنين . فأخرجه المغول من سجنه ، عندما جاءوا إلى المنطقة ، وأحسن إليه « هولاكو » ، وكتب له مرسوماً ببلاده السابقة ، وأخذه معه للاستدلال به ، والاستعانة به ، كأحد الأمراء الأيوبيين . وقد حضر مع « كتبوقا » أخذ قلعة دمشق ، وسلمت إليه مملكته السابقة ، ليحكمها نيابة عن المغول . وقد ظل كذلك حتى جاء الملك المظفر قطز ، فقاتل السعيد مع المغول ، وقتله قطز فيما بعد . لمعلومات في هذا الشأن ، راجع : ابن العميد ، أخبار ..، ص ١٧١ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، جـ٧/ص ٣٠٧ ؛ الحنبلي ، شفاء القلوب ص ٢٩٢ ؛ المقريزي ، السلوك ، ١ ، ٢/ ص.ص ٤١١ ، ٤٢٠ ، ٤٣١ ؛ الذهبي ، العبر ، جـ٥/ص.ص ٢٤٥ - ٢٤٦ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية جـ١٣/٢٢٥ ؛ النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، جـ٧/ص ٨٠ .

(٤٨) انظر ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص.ص ١٧٠ - ١٧١ ، راجع حاشية ٥٣ من هذا البحث ، حول علاقة الناصر ، بالمماليك ، فقد كانت علاقة عدائية من أصلها . وهذا ما يناقض رواية المقريزي السابق ذكرها في حاشية رقم ٣٦ .

(٤٩) كان الغوري من بني أيوب يتعدى على الضعيف ، بل ويقتله ، فقد قتل الملك الصالح نجم الدين أيوب أخاه العادل ، بعد أن استولى على ممتلكاته . وهذا الناصر ، يستحوذ على ممتلكات السعيد ، كما ذكرنا في حاشية رقم ٤٧ . وبعد ذلك يزج بالناصر داود في السجن ، وقد ذهب يستجيره من الملك المعيب ، صاحب الكرك والشوبك ، وهي في الأصل ممتلكات الناصر داود ، وظل في سجنه بقلعة حمص ثلاث سنوات . حول هذه المواضيع ، انظر ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ٧٩٣ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، جـ٣/ص.ص ١٧٩ وبعدها حسب حوادث السنين ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٦/ص.ص ٣١٩ ، ٣٣٢ ، ٣٦٢ ، جـ٧/ص ٣٤ ؛ ابن كثير ، ما يتعلق بالعلاقة بين المغول وحسام الدين بن عكا ، والأكراد والتركمان ، راجع تفاصيل ذلك في كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ص.ص ٢٩٠ - ٢٩٤ .

(٥٠) ما يتعلق بعلاقة حسام الدين مع المغول ، راجع تفاصيل ذلك في كتابنا سقوط الدولة العباسية ، ص.ص : ٢٩٠ - ٢٩٤ .

(٥١) لقد كانت مسألة تدمير اللور والأكراد شيئا ممنوعا منه ، حسب وصايا الامبراطور المغولي لأخيه . راجع ذلك في : رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ٢/ص.ص ٦٨٧ – ٦٨٨ ، الترجمة العربية ، جـ٢/ص.ص ٢٣٦ – ٢٣٧ . انظر أيضاً الجوزجاني ، منهاج الدين سراج ، طبقات ناصري ، ترجمة وتحقيق رافرتي ، لندن ، ١٩٧٠م ، جـ٢/ص. ١١٩٣ . انظر كذلك المرجع السابق ذكره في حاشية ٥٠ نفس الصفحات .

(٥٢) ابن العميد ، أخبار ،، ص.ص ١٧٠ – ١٧١ .

(٥٣) نفس المصدر السابق ، ص.ص ١٦٨ – ١٦٩ ، اليونيني ، قطب الدين ، ذيل مرآة الزمان ، تحقيق دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م ، ص ٣٤٢ . ولقد قام أولئك المماليك بأعمال عدوانية ضد الأهالي ، وأخذوا يغيرون على كل ما يقع تحت أيديهم ، فأخافوا السبل ، أثناء تجوالهم بين مصر والشام . وقد عرضوا خدماتهم حتى على الصليبيين ، كما وعدوهم بتسليمهم بيت المقدس (انظر في هذا الشأن ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٣/ص.ص ١٨١ ، ١٨٤) . وقد كانوا أعداءً للناصر نفسه ، فقد حاربوه مع المغيث عمر ، وكان بيبرس ، وهو كبيرهم ، قد خف وهاجم الناصر ، في حركة من تحركاته وقومه المماليك ، وقطع أطناب خيمته . راجع ما قاله في هذا الخصوص ابن تغرى بردى ، في النجوم الزاهرة ، جـ٧/ص.ص ٤٧ ، ٥٣ – ٥٤ ، ٩٧ – ١٠١ ، كذلك راجع : أبو الفداء ، المختصر ، جـ٣/ص.ص ١٩٠ – ١٩٨ ؛ المقريزي ، السلوك ، ٢/١ ص.ص ٤١٤ – ٤١٥ ، ٤٩١ وبعدها ثم ص ٤٠٦ .

(٥٤) ابن العميد ، أخبار ،، ص.ص ١٦٨ – ١٦٩ .

(٥٥) نفس المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(٥٦) نفس المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(٥٧) بوابات حلب الأربع هي : باب دمشق ، باب انطاكية ، باب اليهود ، باب الروم . عن هذه البوابات انظر الغزي ، كامل بن حسين بن محمد الحلبي ، « نهر الذهب في تاريخ مدينة حلب » المطبعة المارونية ، حلب سنة ؟ ، جـ٢/ص.ص ٧ – ٩ . وعن أخذ المغول هذه المدينة ، جـ١/ص.ص ١٩٥ – ١٩٧ .

(٥٨) حول أخذ المغول حلب ودمشق ، راجع : أبو شامة ، تراجم ، ص ٢٠٣ ؛ ابن العميد ، أخبار ، ص.ص ١٧١ – ١٧٣ ؛ ابن العبري ، تاريخ ، ص.ص ٢٧٨ – ٢٧٩ ؛ الحوادث الجامعة ، المنسوب لابن الفوطي ، ص.ص ٣٣٩ – ٣٤٠ ؛ رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ٢/٧١٩ ، الترجمة العربية جـ ٢/٣٠٦ – ٣٠٧ ؛

الذهبي ، العبر ، جـ٥/ص ٢٤١ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، جـ٣/ ١٩٩ - ٢٠٣ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٣/ص ٢١٨ ؛ المقريزى ، السلوك ، ٢/١ ، ص ٤٢٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٧/ص ٧٥ - ٧٦ ؛ ابن العماد ، شذرات ، جـ٥/ص ٢٩٠ .

(٥٩) لعلها : يخالفونهم ، أى يجادلون ويرددون القول معهم ويشتمونهم .

(٦٠) ابن العميد ، أخبار ... ص ١٧٢ .

(٦١) نفس المصدر السابق ، والصفحة .

(٦٢) هي إبنة السلطان السلجوق فى بلاد آسيا الصغرى علاء الدين ، وهى إبنة بنت العادل ، أى أن الناصر تزوج بابنة خالة أبيه وذلك سنة ٦٥٢هـ . انظر : سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٧٩١ ؛ ابن العماد ، شذرات جـ٥/ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٦٣) كان مع الناصر ولده العزيز محمد ، والصالح إسماعيل صاحب حمص ، والأمير ناصر الدين العزيزى وأخوه شهاب الدين ، وابن عمهما شهاب الدين ابن حسام الدين . انظر ابن العميد ، أخبار ، ص ١٧٤ .

(٦٤) الطبردار ، هو حامل السلاح ، والفأس أمام سيده ، أثناء سيره . وهذا الكردى كان حامل السلاح أمام الناصر لحمايته !. ابن العميد ، ص.ص ١٧٣ - ١٧٥ ؛ ابن شاكر ، فوات الوفيات جـ٤/ص ٣٦٤ . راجع كذلك كل ما يتعلق بهروب الناصر وتجواله حتى وقع فى مصيدة المغول فى : أبو شامة ، تراجم ، ص.ص ٢٠٥ - ٢٠٦ وغيره من المصادر الشامية ، الوارد ذكرها فى الحواشى السابقة .

(٦٥) بعد أن أخذ المغول مدينة حلب جاءهم أخبار وفاة الامبراطور المغولى ، فرجع « هولاكو » على الفور ومعه قواته جميعاً ، ما عدا كتيبة صغيرة مع قائدها « كدبوقا نويان » فرجع وعبر نهر الفرات إلى الشرق . فذهب إلى معسكر له قريب من السواحل الشرقية لبحيرة وآن ، بالقرب من منبع الرافد الشرق لنهر الفرات . انظر رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ٢/ص ٧٠٠ ؛ الترجمة العربية ، جـ ٢/ص ٣٠٦ .

(٦٦) انظر ابن العميد ، أخبار ... ص ١٧٦ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٨٠ ؛ رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ٢/ص ٧٢٠ ، حيث يذكر الأخير بأن « هولاكو » قال للناصر « ... جون مصر بكرم حاكمى شام بتودهم » . كما يذكر المقريزى ، السلوك ٢/١ ، ص ٤٣٤ بأن « هولاكو » قد قلده ملك الشام

ومصر معاً ، وانه سيره إلى الشام ، وفي الطريق جاءته أخبار كسرة المغول في عين جالوت ، فاسترده وقتله ، ومن معه .

(٦٧) راجع ما سبق وقلناه في هذا الموضوع في كتابنا السابق ذكره ، سقوط الدولة العباسية ، ص.ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ، ٢٦٨ ... .

(٦٨) راجع الحاشية رقم ٤١ من هذا البحث . ولقد كان لوجود الناصر أسيراً لدى المغول السبب الأول والأخير في مسألة استسلام بعض قلاع الشام . وقد استعصت على المغول ، فلما جيء بالناصر أمرهم بتسليمها فسلمت نزولاً عند رغبته ، وأمره . انظر : أبو الفداء ، المختصر .، جـ٣/ص ٢٠٤ .

(٦٩) فيما يتعلق بهزيمة المغول على أيدي المماليك ، في عين جالوت يوم الجمعة ٢٥ أو ٢٧ من رمضان ٦٥٨هـ/ ١١ أو ١٣ أيلول ، سبتمبر ١٢٦٠م راجع : أبو شامة ، تراجم .، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ ، وغيره من مصادر هذا البحث ، حسب حوادث السنين ، في كل من أبي الفداء ، جـ٣/٢٠٥ - ٢٠٧ ؛ ابن كثير البداية والنهاية جـ١٣/ ٢٢٠ - ٢٢١ وغيرها .

(٧٠) عن مقتل توران شاه والصالح إسماعيل على أيدي المماليك انظر سبط الجوزي ، مرآة الزمان ، ص.ص ٧٨١ - ٧٨٣ ؛ أبو شامة ، تراجم .، ص ١٨٥ ؛ الذهبي ، العبر جـ٥/١٩٩ - ٢٠٠ ؛ أبو الفداء ، المختصر .، جـ٣/١٨١ - ١٨٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٣/ص.ص ١٧٧ وبعدها ؛ وفي ص : ١٨٠ ؛ المقريزي ، السلوك ، ١ ، ٢ ص.ص ٣٥١ وبعدها ، وص ٣٧٨ - ٣٧٩ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٦/ص ٣٧٠ - ٣٧٢ .

(٧١) ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص ١٧١ .

(٧٢) أورده رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ٢/ص ٧٢٤ باسم مجد الدين مغولي ، ويبدو لي أن ما أورده ابن العماد وغيره من أن « هولاكو » هو الذي قتل الناصر شخصياً غير دقيق .

(٧٣) يظهر أن المؤرخ قد اشتبه عليه الأمر ، فلم يكن للناصر يوسف ، على ما يبدو لي ، معه من أولاده سوى محمد هذا . انظر الحنبلي ، أحمد بن إبراهيم ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، تحقيق ناظم رشيد ، العراق ، ١٩٧٨ ، ص ٤٤٧ .

(٧٤) ابن العبري ، مختصر تاريخ الدول ، ص.ص ٢٨٠ - ٢٨١ . كان مقتل الناصر يوسف في أواخر شهر شوال عام ٦٥٨هـ/نوفمبر (تشرين الثاني) ١٢٦٠م .